الشعر العربي في العصر العثماني
بيـن الجـودة والرداءة

إعداد

د/ إيمان شعبان محمد عوض
مدرس الأدب والنقد
كلية البنات الإسلامية ـ جامعة الأزهر بأسيوط

مقدمة

الحمد لله العلي الأكرم ، الذي خلق الإنسان من العدم ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، والصلاة والسلام على هادي الأمم الذي أخرجنا إلى النور من حالكات الظلم ، وعلى آله وصحبه ذوي المعالي والهمم .

وبعد ،

فقد كثرت أحاديث المؤرخين والباحثين حول الشعر العربي في العصر العثماني ما بين متهم له بالتكلف والتخلف ومنكر لهذا الاتهام ولكل فريق حججه وأدلته . وتوقف فريق ثالث عن الخوض في هذه القضية ، حتى تتبين له الحقيقة. وكنت من هذا الفريق؛ لذلك عزمت أمري على أن أبحث في هذا الموضوع بروية ، فخرج بحثي هذا الذي يحمل عنوان " الشعر العربي في العصر العثماني بين الجودة والرداءة ".

ولقد دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع عدة أسباب ، منها :

١ـ تزاحم الأصوات التي أعلنت خبر وفاة الشعر العربي في العصر العثماني ، وكثرة الأقلام التي كتبت النهاية لهذا الشعر في ذلك العصر ، وعلى الجانب الآخر فإنني سمعت أصواتاً أخرى تكذب هذا الخبر ، وعثرت على أقلام تناوئ هذا الاتهام ، وتؤكد على حياة الشعر وحيويته وقتذاك. فتشوقت إلى معرفة الحقيقة في هذا الأمر وذلك بالوقوف على مدى صدق الشائعات التي دارت حول الشعر العربي في هذا العصر والتي تحكم بضعف الشعر وموته .

٢ ـ قلة الدراسات التي تناولت الشعر العربي في العصر العثماني . فحاولت أن أضع بصمة في هذا الموضوع لعله يخرج إلى النور، فينتفع الدارسون بهذا الكم الهائل من الشعر الذي دفنه كثير من المؤرخين والباحثين وهالوا عليه التراب.

أما عن منهجي في البحث :

فهو المنهج الوصفي ـ التحليلي ، وفيه جعلت الشعر العربي في العصر العثماني مادة أساسية للبحث مبينة مدى توافر مقومات الشعر الجيد فيه أو خلوها منه.

هذا ، وقد التزمت في منهج الدراسة أموراً ، منها :

١ ـ الترجمة للأعلام الذين ورد ذكرهم في البحث وبصفة خاصة الشعراء.

٢ ـ مراعاة الموضوعية عند رصد وتحليل النصوص .

خطة البحث :

قسمت بحثي إلى مقدمة ، وتمهيد وثلاثة مباحث ، ثم خاتمة ، وفهرسين ، أحدهما للمصادر والمراجع والآخر للموضوعات .

أما المقدمة ، فقد تناولت فيها أهمية الموضوع والسبب الداعي لاختياره ومنهج البحث وخطته، والدراسات السابقة.

وقد اشتمل التمهيد على متناقضات حول الشعر العربي في العصر العثماني

أما المبحث الأول فعنوانه : العاطفة الشعرية بين الصدق والمجاملة

وأما المبحث الثاني فعنوانه : المضمون الشعري بين الطبع والتكلف

وأما المبحث الثالث فعنوانه : الصياغة الشعرية بين القوة والضعف

ثم الخاتمة ، وفيها أهم النتائج والتوصيات ، وفهرس المصادر والمراجع ، وأخيراً فهرس الموضوعات.

الدراسات السابقة :

١ ـ الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ـ محمد سيد كيلاني ، تناول فيه الكاتب الأدب المصري في العصر العثماني ، وأكد على حياة الأدب المصري وحيويته في ذلك العصر ، مع اعترافه بأن ذلك العصر لم يخل أيضاً من نماذج أدبية ضعيفة شعراً ونثراً .

٢ ـ الأدب في العصر العثماني بين منصفيه والطاعنين فيه . محمد عبد الحميد سالم ، قام الباحث في دراسته بالدفاع عن الأدب في العصر العثماني ، مع ذكر أسباب ازدهار الشعر في ذلك العصر.

٣ ـ دراسات في الأدب العثماني ـ د/عبد الستار سيد أحمد ، ود/ميادة التونجي ، تمت فيه دراسة الأدب ، وقد فصل القول في الشعر وخصائصه الفنية ، مع الترجمة لبعض الكتاب

وبيان أسلوبهم في الكتابات الأدبية.

وفي بحثي هذا ركزت على أهم الأسباب التي أدت إلى اتهام الشعر العربي في العصر العثماني بالركود والتكلف مع الرد عليها. كما قمت ببيان الحقيقة في هذا الأمر فاستعرضت بعض نماذج من الشعر الجيد الذي تمتع بصدق العاطفة وقوة الصياغة ، كما خلا من التكلف ، ونماذج أخرى من الشعر الرديء الذي تسربلت فيه العاطفة بثوب المجاملة ، أو كان الأسلوب فيه ركيكاً ، والمعنى متكلفاً. واكتشفت كماً هائلاً من الشعر الجيد الذي حكم عليه كثير من المؤرخين بالموت ظلماً وكذباً.

تمهيد

متناقضات حول الشعر في العصر العثماني

اختلفت الآراء حول الشعر في العصر العثماني ؛ فنجد أن أكثر المؤرخين قد اتهم الشعر في العصر العثماني بالركود والتكلف والتقليد والهبوط باللغة العربية إلى مستوى العامية ، وظلت هذه الفكرة معروفة بين المؤرخين والدارسين للأدب إلى أن قيض الله لهذا العصر من يدافع عنه فألفت ـ حديثاً ـ الكتب التي تنفي هذا الاتهام وتثبت عكس ذلك .

كما أخذ بعض الدارسين يتخبطون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وعليه فلابد من ذكر الآراء المتضاربة لكي نكشف الغطاء ونجلي الخفاء في هذا الموضوع.

وصم الشعر العربي في العصر العثماني بالركود والتكلف :

اشتهر بين الكتاب والدارسين للأدب أن العصر العثماني عصر انحطاط في الأدب شعراً ونثراً ، فقد قيل عن الشعر في ذلك العصر : " إن دولة الشعر قد زالت ، ولم يبق منها إلا ما يبقى من الدار بعد الطموس . إذ تقاصرت همم الشعراء عن الأغراض الحيوية الهامة وعجزوا عن تكرار المعاني المسبوقة ، وضاق ذرعهم حتى عن اصطناع البديع وتجنب العامية ..."[١]

---

(١) الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث ـ محمود رزق سليم ، دار الكتاب العربي ، مصر سنة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م ، ص٩٤.

ومما قيل : " فسَدَتْ ملكة اللسان، وجمدت القرائح، وأصاب الشعرَ ما أصاب سائر الآداب العربية في هذا العصر من الضعف والانحطاط؛ لما استولى من الجمود على القرائح، وتوالى على الأمة من الذل في تلك الفترة المظلمة...."(٢) .

وقد احتج أصحاب هذا الرأي بحجج ، منها :

أ ـ الحكام العثمانيون أهل ظلم وقهر :

فقد انتشر في الأوساط الأدبية أن الغرض الأساسي من فتوح العثمانيين هو " إظهار القوة وإخافة الناس وإخضاعهم لسلطانهم ، ولم يعنوا كثيراً بإصلاح مرافق البلاد الخاضعة ، وتدبير شئونها تدبيراً نافعاً ، وإحلال الأمن وإقرار العدل فيها . لذلك كان حكمهم لمصر وبالاً عليها . وكان جل همهم استنفاذ مال البلاد وخيراتها وحملها غنيمة باردة إلى خزائنهم "(٣) . وإذا كان الأمر كذلك ، فلم يكن هناك اهتمام بتنمية البلاد من أي ناحية ؛ وعليه فقد تأخرت البلاد في العصر العثماني من الناحية الثقافية ، فهبط مستوى الأدب شعراً ونثرا .

ب ـ إن العثمانيين أتراك ولا يعرفون اللغة العربية ، وكانت اللغة التركية هي اللغة السائدة :

وعليه ، فلا عجب من أن يصاب الأدب عامة والشعر خاصة بالضعف ثم الاندثار ؛ لأنه لم يجد بيئة ترعاه ولا أهل يدعمون رقيه وتطوره . فكان الشعر في هذه الأجواء مثل الغريب الذي فقد أهله جميعاً في بلد لا يعرف فيها أحداً ولا يعرفه فيها أحد.

دفاع عن الشعر العربي في العصر العثماني :

جاء فريق من المؤرخين ينكر الاتهامات التي لحقت بالشعر في العصر العثماني ؛ فالشعر في العصر العثماني ـ عند هؤلاء المؤرخين ـ لم يضعف ولم ينحط بل ازدهر وتطور . ورأى أصحاب هذا الرأي أنه :

---

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ـ جورجي زيدان ، ط سنة ١٩١٣م ، ٤/ ٢٧٥.

(٣) الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث ـ محمود رزق سليم ، ص٩١.

من أهم الأسباب التي أدت إلى وصم الشعر في العصر العثماني بالانحطاط والتكلف :

١ ـ حقد غير المسلمين من الغرب على العثمانيين :

فقد فتح العثمانيون البلاد لنشر الإسلام فيها ودحض أعداء الإسلام وكسر شوكتهم ، وبذلوا جهوداً مشرفة لتحقيق هذا الهدف العظيم ؛ فأدى هذا إلى حقد غير المسلمين ـ من المؤرخين ـ على العثمانيين وتربصهم بهم ، فأخذوا يكيلون لهم التهم والنقائص التي تحط من شأنهم . فعكفوا ليل نهار على تغيير التاريخ العثماني وتبديله. فمعاداة هؤلاء للعثمانيين هي في واقع الأمر معاداة للإسلام ومناصريه.

وهذا ما قرَّره د/ بكري شيخ أمين، حيث قال: "ويخيَّل إلينا أنه ما من عصر من عصورنا الأدبية أصابَه من الظلم في الأحكام، والإهمال في الدراسات، ما أصاب هذا العصرَ (يقصد المملوكيَّ، وهو ما ينطبق على العثماني أيضًا)، ونال منه، والأكثر من هذا اعتقادنا الجازم أن هناك عمليةً خفيَّة تهدف إلى صرف الباحثين عن دراسة هذه الحقبة، والاكتفاء بحكم سريع ظالم عليها، ولسنا نرى لذلك سببًا. اللهم إلا أن يكون هذا العصر هو الذي قاوم جحافل الغرب، التي استحكمت حينًا من الدهر في هذه البلاد، ودفع الوثنيةَ التي جاءت على سيوف التتار ورماحهم، وملأ المكتبةَ العربية التي خوتْ بمصيبة بغداد وسواها بالتراث العربي والإسلامي المشرقين، وأعاد إلى النفس العربية عزَّتَها وثقتها، ويكفي سبب واحد من هذه؛ ليشحن قلوب الشعوبيين، والأعداء والمبغضين، والمارقين والمنحلين، حقدًا ضد العصر وآله، وكل ما فيه ".(٤)

لا شك أن الدولة العثمانية تعد الدولة الوحيدة التي نشرت الإسلام في ثلاث قارات ، هي : آسيا وأفريقيا ، وأوروبا ، كما أنها كانت المدافع الحقيقي عن بلاد الإسلام والمسلمين لمدة تزيد على ثلاثة قرون ، وجنبتهم مخاطر الحملات الصليبية والشيعية الصفوية ، وقامت بفتوحات كثيرة داخل أوروبا نفسها ، وعملت على انتشار الإسلام هناك ، كما حافظت على فلسطين والقدس الشريف ضد الحركات الصهيونية لذا فقد كثر الحاسدون ضد الدولة العثمانية ، وعملوا على تشويه تاريخها.

---

(٤) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ـ بكري شيخ أمين ، ط/ دار الشروق، ١٩٧٢م ، ص٥.

لذا ، فكان الشغل الشاغل لأعداء الإسلام هو النيل من المسلمين وإنجازاتهم في نصرة الإسلام والرغبة في انتشاره.

وهكذا ، فقد " اعتمدت معظم الدراسات التاريخية العربية للقرنين العاشر والحادي عشر الهجرين/ السادس عشر والسابع عشر الميلاديين في البلاد العربية إلى عهد قريب ، بصورة رئيسية ، على ما تقدمه الدراسات الغربية المستندة إلى الوثائق والمصادر الأجنبية ، أكثر من اعتمادها على المصادر العربية ، ولذا فقد جاءت هذه الدراسات ملونة في أغلب الأحوال بلون أصحابها ونزعاتهم واتجاهاتهم المختلفة "(٥) . ولما شاعت مثل هذه الاتهامات تناقلها الكتاب العرب وهم لا يدرون ماذا يُدَبِّرُ للإسلام وللمسلمين.

٢. صعوبة الوصول إلى المادة الأدبية :

وبهذا يصعب علينا إثبات الحقيقة التي تشير إلى أن الشعر لم يكن ضعيفاً ولا متكلفاً في العصر العثماني ؛ فالنماذج الشعرية التي لابد من وجودها ضائعة ومفقودة ، فـ " معظم ما خلف شعراء العصر السلجوقي والفاطمي والأيوبي والعثماني لا يزال مخطوطاً ، وأكثر هذه المخطوطات متربعة على رفوف مكتبات الغرب او الشرق ، وبعضها ضائع أو مفقود ... "(٦)

وأخذ أصحاب هذا الرأي يردون على الحجج السابقة لإبطالها ، وذلك على النحو الآتي :

كان ردهم على حجة أن **الحكام العثمانيين كانوا أهل ظلم وقهر** هو : إن الحكام العثمانيين لم يكونوا على درجة واحدة ؛ حيث " كان بين سلاطين بني عثمان العادل والظالم ، القوي والضعيف ، المؤمن الملتزم والمسلم المستهتر .. وباختصار كانوا كغيرهم

---

(٥) لُطف السمر وقطف الثمر ـ من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر ـ نجم الدين محمد بن محمد الغزي الدمشقي (ت١٠٦١هـ /١٦٥١م) ، تحقيق : محمود الشيخ ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق، د. ط ، د.ت ، ص١:٥ *مقدمة المحقق.*

(٦) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ـ بكري شيخ أمين ، ص٥٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢.

من ملوك الزمان " [٧] وكذلك كان حال الولاة في البلاد فمثلاً في مصر نجد أن (خيري بك) - أول ولاة العثمانيين بمصر - قد اشتهر بالعسف والظلم . ومات سنة ٩٢٨هـ ثم تعاقب الولاة على مصر . وحاول أحمد باشا الذي تولى سنة ٩٣٠هـ أن يستقل بحكم البلاد ، فأمر أن يخطب له ، وضرب النقود باسمه ، ولكنه بالغ في الظلم فحقد عليه الناس ، وأخيراً تمكن بعض قواد الجيش العثماني في مصر من القضاء على حركته . ثم شنق على باب زويلة سنة ٩٣١هـ. وعلى الجانب الآخر كان بعض الولاة العثمانيين على درجة طيبة من الاستقامة وحسن السيرة . ومن أشهر هؤلاء الولاة :

داود باشا الخادم الذي حكم من سنة ٩٤٥- ٩٥٥ وكان كريماً محباً للعلم والعلماء ، مغرماً بمطالعة الكتب العربية حتى غنه جمع عدداً وافراً منها . وفي أيامه انتشر الأمن وساد الرخاء . وقد بنى مدرسة عظيمة . ومات بالقاهرة ودفن بها . وسنان باشا (٩٧٩-٩٨١) وكان مغرماً

بإقامة المباني فأنشأ عدة مساجد ومدارس وحمامات وأسواق . ومسيح باشا (٩٨٢-٩٨٨) الذي ضرب بيد من حديد على اللصوص وقطاع الطرق ، فقتل منهم نحو عشرة آلاف رجل ، وبذلك تطهرت البلاد من شرهم ، واستراح الناس من أذاهم .[٨]

أما كون **العثمانيين أتراك ولا يعرفون اللغة العربية** ، فهذه الحجة مردودة ؛ لأن كثيراً من العثمانيين كان يحب اللغة العربية إلى حد إجادتها ؛ كما قد تمتع كثير منهم بموهبة نظم الشعر فالسلطان أحمد بن محمد بن مراد [٩] كان " مائلاً إلى المحاضرات ، وله شعر بالتركية .. ومما يروى له من الشعر العربي قوله ، وأجاد :

---

(٧) تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك ، تحقيق : د/ إحسان حقي ، دار النفائس ، بيروت ، سنة ١٩٨١م ، ط أولى ، ص٨.

(٨) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني - محمد سيد كيلاني ، دار الفرجاني ، القاهرة ، ١٩٦٥م. ص١١ ، ١٢.

(٩) السلطان أحمد بن محمد بن مراد السلطان الأعظم والخاقان الأفخم أعظم ملوك آل عثمان وأحلمهم وأكرمهم كان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر محباً للعلماء وآل البيت متمسكاً بالسنة النبوية

ظَبْيٌ يصولُ ولا اتصالَ إليه جرح الفؤادَ بصارمي لحظيه
ما قام معتدلاً وهزَّ قوامه إلا تهتكت الستور عليه
يسقي المدامة من سُلافةِ ريقه ويخصنا بالغُنجِ من جفنيه
عيناه نرجسنا ، وآسَ عِذارِهِ ريحانُنا والورد من خديه " [١٠]

كذلك السلطان عبد الحميد الأول[١١] بن السلطان أحمد خان الذي اشتهر بقصيدته النبوية التي نقشت على الحجرة النبوية الشريفة سنة ١١٩١هجرية ، ومنها قوله : [١٢]

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي ما لي سواك ولا ألوي على أحدِ
فأنت نور الهدى في كل كائنةٍ وأنت سرُّ الندى يا خير معتمدِ
وأنت حقاً غياثُ الخلق أجمعهم وأنت هادي الورى لله ذي السَّددِ
يا من يقوم مقام الحمد منفرداً للواحد الفرد لم يولد ولم يلِدِ

و من الأمراء الذين اشتهروا بحبهم للأدب والبلاغة ، الأمير محمد بن علي السيفي؛ فقد كان " من أهل الأدب الظاهر والفضل السامي، أديبًا فاضلا بليغا... " [١٣] .

حسن الاعتقاد معاشراً لأرباب الفضائل (خلاصة الأثر ، طبعة دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) ، ج١ ، ص٢٨٤).

(١٠) خلاصة الأثر ـ المحبي ١/٢٨٤ـ٢٨٥.

(١١) قضى السلطان عبد الحميد الأول معظم حياته في القصر ، وبعدما اعتلى على العرش لم يهتم بمباشرة السلطة بنفسه . تولى الحكم سنة ١١٨٧هـ / ١٧٧٤م بعد وفاة أخيه مصطفى الثالث . مدة حكمه ١١٨٧ـ١٢٠٣هـ / ١٧٧٤ـ ١٧٨٩م ، وكان فائق الإنسانية(أطلس تاريخ الدولة العثمانية . سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث ، مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع ، ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م ، ط الأولى ، ص٥٢٠).وانظر كذلك تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص٣٤١ وما بعدها.

(١٢) القصيدة كاملة في (تاريخ الأدب العربي ـ العصر العثماني ـ عمر موسى باشا ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ١٩٨٩م ، ط الأولى ، ص٣٨ـ٣٩).

و الأمير مصطفى بن السلطان سليم القانوني والي بلاد القرمان والمقتول سنة ٩٦٠ هـ كان " شجاعًا، شاعرًا، محبًا للعلم والعلماء، أديبًا؛ ولهذا حزن الناس لموته، ورثاه كثير من الشعراء" (١٤)

وكذلك الوزير عبد الله الكبورلي الذي ولي مصر سنة ١١٤٣ هجرية، كان له ديوان شعر جيد على حروف المعجم " (١٥). وغيرهم ممن يصعب حصرهم.

وكما ظهر في العصر العثماني شعراء من السلاطين والأمراء ، فقد ظهر كذلك شعراء من العلماء والبلغاء فمن البلغاء العثمانيين ممن يجيد الشعر(العناياتي) الذي " كان أحد بلغاء عصره الذي جمع شعره بين جودة السبك وحسن المعنى وعليه طلاوة رائقة وبهجة فائقة ، وكان يدخل في جميع طرق الشعر من بديع وهجو وغزل" (١٦) ومن شعره ، قوله : (١٧)

إن المحب عناؤه لا يبرحُ في القرب والإبعاد فهو مبرح
القلبُ بالشوقِ الشديدِ مجرح والطرف بالدمع المديدِ مقرح
وإلى متى هذا الهوان من الهوى والله إن الموت منه أروح
قد كان جرح الصد منك نكاية فأتى فراقٌ بالذي هو أجرح
ما أنت إلا الروح إن حجبت فما للجسم غير الروح شيء يصلح

وكذلك عمل تشجيع حكام الدولة العثمانية للعلماء والأدباء، على تحفيز الشعراء - العرب والعثمانيين - على التنافس فيما بينهم وتجويد منتجاتهم الشعرية لكي يفوزوا بالجوائز والمنح من السلاطين والأمراء .

---

(١٣) (خلاصة الأثر: ٤/ ٤٧). وانظر (الأعلام للزركلي: ٦/ ٢٩٣).

(١٤) (حقائق الأخبار: ١/ ٥٥٠). وانظر كذلك (تاريخ الدولة العلية العثمانية/ ٢٤٧).

(١٥) كان من أرباب الفضل ، وكان إنساناً خيراً صالحاً منقاداً إلى الشريعة ، أبطل المنكرات (الجبرتي ١٤٩/١).

(١٦) خلاصة الأثر ١٦٦/١

(١٧) خلاصة الأثر ١٦٨/١.

وأما حجتهم بأن اللغة التركية كانت هي السائدة؛ فهذا الادعاء غير صحيح ؛ فالأمر على العكس من ذلك ؛ حيث " انكمشت اللغة التركية على نفسها في مصر وفي غيرها من الولايات الإسلامية . فلم تكن تُستخدم إلا في دواوين الحكومة ـ وكانت قليلة العدد ـ ولا يتحدث بها إلا الأتراك العثمانيون فيما بينهم ، وكانوا قلة بالنسبة لتعداد السكان. وكانت السلطات العثمانية تعمد إلى ترجمة الفرمانات الهامة والأوامر الحكومية إلى اللغة العربية، وتتلى في المساجد الكبرى،

وفي الأسواق، والقياسر، وغيرها من أماكن التجمعات الجماهيرية، أو يطوف بها المشاعيلية(١٨)

كرجال إعلام " (١٩).

إنه من الظلم أن نحكم على الأدب بالانحطاط والتكلف في عصر امتد أكثر من ثلاثة قرون كان شعراؤه موزعين في دولة مترامية الأطراف من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي ، ومن شمال العراق إلى جنوب اليمن فانحطاط الأدب وتكلفه يؤذن بموته وانعدامه و " الأدب لا يمكن أن ينعدم لأنه وليد العواطف ، والعواطف موجودة في كل زمان ومكان " (٢٠)

ومما لا شك فيه أن هناك " فجوةً في الأدب العربي ، وقفزةً إلى العصر الحديث ، تاركةً وراءها قروناً لم يكشف عنها النقاب ، واتهم أصحابها زوراً وبطلاناً نتيجة الإهمال

---

(١٨) المشاعلية مصطلح تاريخي له عدة مدلولات في العصر العثماني :

أولاً : الرجال الذين يطوفون الشوارع والحارات يذيعون الأوامر والأنباء الحكومية الهامة ، وكان المشاعلية يسيرون في العادة ليلاً يحملون المشاعل . ومن هنا جاءت تسميتهم المشاعلية .

ثانياً : السيافة والجلادون وهم الذين ينفذون أحكام الشنق والجلد .

ثالثاً : المشتغلون بالحرف الدنيئة مثل نزح الآبار والحمامات والمجاري (ابن إياس ـ ج٥ ، ص١٤٠).

(١٩) الدولة العثمانية دولة إسلامية : مفترى عليها ـ د/ عبد العزيز محمد الشناوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠م ، ٣٢٦/١.

(٢٠) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ـ محمد سيد كيلاني ، ص٥٦.

والنقل من الدراسات الاستشراقية ، وقد أثر هذا على الأحكام النقدية في الأدب العربي " (٢١)

لذا ، فإنه من الواجب علينا أن نبرز الحقيقة التي تقرر أن العصر العثماني يعد " من أكثر عصور العربية على الإطلاق تأليفاً وتصنيفاً في شتى ميادين المعرفة المختلفة وكذا في كثرة عدد أدبائه التي فاقت عدد الأدباء في أي عصر من العصور السابقة عليه " وعليه ، فإن الأدب في العصر العثماني " لم يكن منحطاً ولا ميتاً كما قالوا . ولم يكن هم الشعراء والكتاب الجري وراء المحسنات اللفظية كما زعموا. بل كان أدباً حياً ، له أهداف يسعى إليها ، وأغراض يتجه نحوها " (٢٢)

لقد ظهر في العصر العثماني ما يقرب من مائة شاعر ، وردت تراجمهم ومقتطفات من شعرهم في " تاريخ ابن إياس " و " الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ، و" النور السافر في أعيان القرن العاشر " ، و" ريحانة الألبا " للشهاب الخفاجي ، و" خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر " للمحبي ، وتاريخ الجبرتي .

ومع كل ما سبق إلا أن العصر العثماني لم يخل أيضاً من شعر رديء افتقد مقومات الشعر الجيد فمنه ما افتقرت عاطفته إلى الصدق ومنه ما كان متكلفاً معنياً بالزينة اللفظية والمحسنات البديعية ولم يعول فيه الشاعر على المعنى ولا الهدف ، ومنه ما كان ركيكاً في الأسلوب وضعيفاً في التراكيب وفقيراً في الخيال.

إن الشعر العربي في العصر العثماني كان منه الغث ومنه الثمين ـ كحال الشعر في أي عصر من عصور الأدب ـ منه ما تحلى **بصدق العاطفة وكان مطبوعا فصيحاً واسع الخيال.** ومنه ما ظهرت فيه **المجاملة** وكان مقيداً بقيود **التكلف والركاكة والسذاجة** .

---

(٢١) النثر المصري في عصر الدول المتتابعة ـ د/زينب بيره جكلي ، دار الضياء للنشر والتوزيع ، عمان ٢٠٠٧م ، ط الأولى ، ص١٧.

(٢٢) النثر في العصر العثماني في مصر والشام بحث لـ محمد فتحي الأعصر ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٤٣٤هـ /٢٠١٣م ، المقدمة.

ونحن لا نستطيع أن نحكم للشعر ولا أن نحكم عليه إلا باستعراض نماذج متنوعة وأغراض متباينة للشعر في تلك الحقبة الزمنية ، ومدى احتواء عناصر الشعر على سمات الجودة أو خلوها منها.

المبحث الأول

العاطفة الشعرية بين الصدق والمجاملة

من خلال النظر في نماذج متباينة من الشعر العربي في العصر العثماني ، وجدت نصوصاً شعرية تنبض بصدق العاطفة وحرارتها ، كما تبين لي أن نصوصاً أخرى كانت تفتقر إلى عنصر الصدق في العاطفة ، فنظمت الأبيات على سبيل المجاملة أو من أجل التكسب أو لإظهار القدرة الفنية ، وعلى كل حال لابد من استعراض هذه النماذج وتلك للوقوف على مدى توفر عنصر الصدق في عواطف الشعراء .

١ـ **الأشعار التي تتعلق بالعقيدة** ، وهي تشتمل على الأفكار الآتية :

أ . وحدانية الله ـ عز وجل ـ

يؤمن كل موحد بأن الله ـ عز وجل ـ فرد لا شريك له ، فعال لما يشاء في أي وقت شاء ، وفي هذا المعنى يقول الشاعر عبد الله الإدكاوي [٢٣] في قصيدته [٢٤]:

الله ربي لا شريك له ولا ند ولا ضد ولا أعوان

يقضي ويفعل ما يشاء كما له سبحانه في كل يومٍ شانُ

ب ـ العشق الروحي للذات العلية :

---

(٢٣) هو عبد الله بن سلامة الإدكاوي المصري الشافعي الشهير بالمؤذن ، ولد بقرية إدكو بقرب رشيد سنة ١١٠٤هـ ويها حفظ القرآن الكريم ، ثم انتقل إلى القاهرة والتحق بالجامع الأزهر ودرس على شيوخ عصره ، وظهر ميله إلى الأدب فانضوى إلى فخر الأدباء في عصره السيد علي أفندي برهان زاده نقيب السادة الأشراف، الذي أسبغ عليه كرمه، ورتب له ما يكفيه في معيشته، وحج بصحته بيت الله الحرام ، وذلك سنة ١١٤٧هـ (عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ الجبرتي ، المطبعة العامرة الشرفية ، مصر ١٣٢٢هـ ، ١/ ٣٥٤).

(٢٤) الجبرتي ٣٥٩/١.

هناك عقيدة يعتقدها الصوفية وهي حب الذات العلية إلى حد العشق والهيام . ومما يعد من هذا النوع ، قول محمد البكري [٢٥] في إحدى قصائده: [٢٦]

حبيبك دانٍ رقيبٌ قريبُ فماذا البكاءُ وماذا النحيبُ
نعم هو دانٍ ولكنني بعيدٌ فقيدٌ طريدٌ غريبُ
بكائي عليَّ لأني بُليتُ بداءِ الصُّدودِ وعزَّ الطبيبُ

فالشاعر في هم وقلق باستمرار لأن محبوبه بالرغم من قربه منه إلا أن الشاعر لا يحظى بالوصال ، لأن الله ـ عز وجل ـ معرض عنه ومنصرف ، وهذا بلاءٌ عظيم يعاني منه الشاعر.

لا شك في أن الأبيات السابقة تتميز بصدق العاطفة ؛ حيث عبرت الأبيات عن عقيدة للصوفية اعتنقها الشاعر وسجلها بكلماته.

ج ـ التحذير من اتباع المنجمين :

وهذا ما نبه إليه الإدكاوي بقوله : [٢٧]

الله يعلم ما يكون وما به تسري الرياح وما له يجري الفلك
فدع المنجم في ضلالته وما ينبيك عنه ففي مقالته أفك
واحذر تصدقه فتهلك جاهلاً يا مدعي الإيمان فيمن قد هلك
علم الإله محجب إلا على من يرتضيه من رسولٍ أو ملك

---

(٢٥) من سلالة أبي بكر الصديق بمصر ، ولد بها سنة ٩٣٠ وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وأقبل على حفظ المتون والتلقي على شيوخ عصره ، وكان أستاذه الأول أباه ، وجلس مكانه في الجامع الأزهر للتدريس بعد وفاته وعمره لا يتجاوز إحدى وعشرين سنة ، وكان آية في العلم والزهد (تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، شوقي ضيف ، ج٧ ، ص٣٦٦ ، نقلاً عن ريحانة الألبا للخفاجي ٢/٢٢٠).

(٢٦) تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات مصر ـ شوقي ضيف ، دار المعارف القاهرة ، ط ٢ ، ج٧ ، ص٣٦٦.

(٢٧) الجبرتي ١/٣٥٨.

عبرت الأبيات السابقة عن المعنى بعاطفة صادقة حارة ؛ لأن هذه العاطفة نبعت من اعتقاد جازم ببطلان أقوال المنجمين الذين يدعون علمهم للغيب ، وأثبت الشاعر ضلالة هؤلاء الكذابين لأن الذي يعلم الغيب هو الله وحده ، وقد حذر الشاعر من اتباع المنجمين الأفاكين لأن في تصديقهم هلاك وشرك.

د ـ التوسل :

توسل الشعراء بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبآل بيته الطاهر وبأولياء الله المقربين وبالعلماء الربانيين .

من شعر التوسل بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما قاله الإدكاوي في مرضه ، راجياً من الله ـ عز وجل ـ الشفاء ، متوسلاً بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن ذلك أقرب لتحقيق رجائه ، فقال(٢٨):

رب بالمصطفى رسولك طه المصفى من سائر الأدناسِ
حفني منك يا إلهي بلطف وأزل ما يسوؤني من باسِ

ومما نظمه شعراء العصر العثماني في التوسل بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وطلب الشفاعة منه . قول الشبراوي (٢٩) في قصيدته التي منها:(٣٠)

وإذا وصلت إلى معاهد طيبة والناس بين مسلم ومودع
وتظاهرت أعلام هاتيك الربى وبدا لعينك نور تلك الأربع
فادخل لذي الجاه الرفيع وكن على حذر وسل بتأدب وتضرع

---

(٢٨) الجبرتي ٣٦٣/١.

(٢٩) هو عبد الله بن محمد بن عامر بن شرف الدين الشبراوي الشافعي (١٠٩٢ـ ١١٧١هـ) ، الإمام الفقيه المحدث المتكلم الماهر ، الشاعر الأديب . نشأ في بيت علم ، ودرس على شيوخ عصره ، ومال إلى نظم الشعر منذ صباه ، وقد ورث ثروة طائلة عن والده فبنى لنفسه قصراً فخماً ، ومن آثاره الأدبية " الإتحاف بحب الأشراف " ، و" شرح الصدر في غزوة بدر" (عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ الجبرتي ، المطبعة العامرة الشرفية ، مصر ١٣٢٢هـ ، ج١ ، ص٢١٣).

(٣٠) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ، ص٣٢٤.

واغنم سويعاتٍ هناك سعيدةً ما بين منبره وذاك المضجع
واستقبل القبر الشريف وناده يا من يؤمل للكروب إذا دُعي
يا من له الجاه العريض ومن به يبرا المريض من السقام المفظع
هذا مقام المستعين المستجير المذنب المتأوه المتوجع
الخائف الوجل الذي قد ضيع الـ أوقات في تحصيل ما لم ينفع
واطلب نهاية ما تريد ولا تخف مللاً وأكثر في المنى وتوسع

... إلخ.

في الأبيات السابقة يمزج الشاعر توسله بالنبي بمديحه له ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما ينقل لنا مشاعر الحب والتلهف إلى أماكن الشرف والطهر في المدينة المنورة ، وأطهرها قبر النبي ومنبره. وهذا كله عن طريق قصة شخص يريد السفر إلى هذه الأماكن الطاهرة ، فيودعه الشاعر ويبين له عظمة تلك البقاع وعظمة صاحبها ، ويوصيه بأن يدخل على قبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أدب وخشوع ، ويطلب من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ العون في ذلة واعتراف بذنوبه وتقصيره ، فهذا أرجى لتحقيق مآربه.

ولا شك أن هذه الأبيات تنبض بصدق العاطفة وحرارتها. وهذا ما جعلنا نشعر بالمعاني ونتمثل المواقف ، فما كان من القلب وصل إلى القلب.

ومن شعر التوسل بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قول محمد البكري في قصيدته (٣١):

يا أكرم الخلق على ربه وخيرَ من فيهم به يُسألُ
قد مسني الكرب وكم مرةٍ فرَّجتَ كرباً بعضه يُذْهِلُ
وأنت بابُ الله أيُّ امرئٍ أتاه من غيرِك لا يدخلُ

يتوسل الشاعر بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمكانته عند ربه ؛ فهو خير خلق الله جميعاً، لذلك يطلب الشاعر منه تفريج الكرب والشفاعة التي لا يملكها إلا النبي ـ صلى

---

(٣١) تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات مصر ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ج٧ ، ص٣٦٧.

الله عليه وسلم ـ مما سبق يتبين أن قصائد التوسل تتميز بصدق العاطفة ، وحرارة المشاعر ، وتوفر الإحساس .

وذلك " لأن الشعراء كانوا يؤمنون بما يقولون . وكانوا يعتقدون أن هذه القصائد التي ينظمونها في التوسل تعود عليهم بالخير العميم ، والنفع الجزيل "(٣٢).

كذلك توسل الشعراء بآل البيت ، ومن ذلك ما قاله الإدكاوي : (٣٣)

آل طه يا أولي كل هدى نزل القرآن في تطهيركم

نوركم يجلو دجا كلِّ عنا انظرونا نقتبس من نوركم

البيت الثاني فيه اقتباس من قوله تعالى :" يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۚ....." (٣٤)

وكان الشاعر منهم يقف على ضريح من الأضرحة ـ وتظهر هذه المشاهد بوضوح في الموالد ـ ويطلب العون والغوث من صاحب الضريح ، ولا شك أن في هذه الأمور مخالفاتٍ شرعية ، لأن المسلم لا ينبغي عليه أن يطلب العون إلا من الله ـ عز وجل ـ ، مثال ذلك قول عبد الله الشبراوي متوسلاً بالحسين : (٣٥)

يا ابن الرسول بأمك الزهرا البتو ل وجدك المأمول عند الناسِ

وشقيقك الحسن الشهيد المرتضى الطاهر الأخلاق والأنفاسِ

وبحق حرمة جدك المبعوث مِن أزكى العناصر رحمةً للناسِ

عطفاً عليَّ فإن لي بك نسبةً الحب أسسها أشد أساسِ

وعليك بعد الله ثم نبيه عولتُ في الإقبالِ والإيناسِ

فلقد خصصت وأنت أشرف سيد بكريم أخلاقٍ وطيب غِراسِ

حاشى يخيبُ مؤمل يرجوك في الـ إصباح أو يدعوك في الإغلاسِ

---

(٣٢) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ، ص٢٣٢.

(٣٣) الجبرتي ١/٣٥٦.

(٣٤) سورة الحديد ، آية ١٣.

(٣٥) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني : ص٢٣٢، ٢٣٣.

..... إلخ .

وقد **توسل الشعراء بالأولياء** ، مثال ذلك توسل الشمسي[٣٦] بالسيد أحمد البدوي ، وذلك في قوله :[٣٧]

إليك إليك قد زاد احتياجي ومن ناداك يا بدوي فناجي

إلى أن قال :

فيا بدويُّ يا قصدي وسؤلي و يا حامي الحِمَى يوم العِجاجِ
دخيلٌ في حِماك وأنت غوثٌ وحاشا أن يُخَيَّبَ من يناجي
فأنقذه وسلكه طريقاً إلى التقوى بعزٍّ وابتهاجِ

لاشك أن شعر التوسل بالأولياء ينبض بصدق العاطفة وحرارتها لأنه نابع من اعتقاد جازم ؛ فأصحاب هذه الأشعار كانوا " يذهبون إلى الأضرحة وينشدون قصائدهم أمامها في ذلة وخشوع وخضوع ، معتقدين أن أصحاب الأضرحة يسمعونهم ، راجين أن تتحقق آمالهم ببركة هؤلاء الأولياء ، وتستجاب دعواتهم " [٣٨].

وعلى الجانب الآخر وجد من الشعراء من ينكر التوسل بالأولياء وزيارة الأضرحة ، مثل ما فعل حسن البدري [٣٩]، لما قال في قصيدته التي منها :[٤٠]

إذ نسوا الله قائلين فلان عن جميع الأنام يفرج كربا

---

(٣٦) هو الأديب الماهر والنبيه الباهر نادرة العصر وقرة عين الدهر عثمان بن محمد بن حسين الشمسي ، ولد بمصر وربي في حجر أبويه وتعلق من صغره بمعرفة الفنون الغريبة ، وعرف الفرائض واستخرج منها طرقاً غريبة في استحقاق المواريث (الجبرتي٢/٢٢٥).

(٣٧) الجبرتي٢/٢٢٥.

(٣٨)الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ، ص ٢٣٣.

(٣٩) الشيخ العمدة المتفضل الفاضل الشاعر البليغ الصالح العفيف حسن البدري الحجازي الأزهري ، وكان عالماً فصيحاً مفوهاً متكلماً له في الشعر طريقة بديعة ، وكان لا يختلط بالناس(عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ الجبرتي ١/٧٨).

(٤٠) عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ الجبرتي ١/٨٢.

وإن مات جعلوه مزاراً وله يهرعون عجماً وعربا
بعضهم قبّلَ الضريح وبعض عتب الباب قبلوه وتربا
هكذا يفعل المشركون مع أصـ نامهم يبتغون بذلك قربا
كل ذا من عمى البصيرة والوي ل لشخص أعمى له الله قلبا

الأبيات السابقة تمتلك عاطفة صادقة ؛ لأنها نابعة من عقيدة عند الشاعر ترفض التوسل بالأولياء وزيارة الأضرحة ، وتشين مثل هذه الأفعال وتحرمها.

مما سبق يتبين أن الشعر الذي يتعلق بالعقيدة يتسم بصدق العاطفة ؛ لأنه ينبع من اعتقاد جازم، وفكر راسخ ، فلا مكان للمجاملات في هذا المقام .

٢ـ شعر الغزل العفيف:

وفيه يصف الشاعر صفات المرأة معنوياً ويوضح ما بداخله تجاه محبوبته من مشاعر الشوق والحنين ، دون المساس بتصوير الصفات الجسدية أو مفاتن المرأة.

لقد كثر شعر الغزل العفيف في العصر العثماني حتى فاق الأغراض الشعرية الأخرى. وقد تنوعت طرقه .

فمنه ما كان في صورة البكاء على الأطلال ؛ حيث وجد من الشعراء من كان يبكي على أطلال المحبوبة ، تعبيراً عن شوقه العارم لرؤيتها مرة أخرى في هذه الأماكن التي بعد عهدها وطمست معالمها ، وذلك مثل قول عبد الحق الشامي [٤١]، في قصيدته التي منها :[٤٢]

كأن الرسوم الدارسات تصبري عشية خفت بالقطين الركائبُ
فوأسفاً لا القلبُ من سكرةِ الهوى يُفيقُ ولا من غيبةِ الشوقِ آيبُ

---

(٤١) هو عبد الحق بن محمد بن محمد الحمصي الدمشقي ، الحجازي ، ولد سنة ٩٦٢هجرية ، اشتغل في التدريس في مدارس دمشق ، كان أديباً متمكناً من فنون كثيرة ، توفى سنة ١٠٢٠هجرية (خلاصة الأثر ٢/٣١٠).

(٤٢) ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ـ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٧م ، ط الأولى ،١/٢٦٣.

فالشاعر يصبر نفسه على بعد محبوبته بالوقوف على ديارها الدارسة التي تغيرت معالمها . وهو حزين لأن قلبه في سكرة من حبها لن يفيق من هذه السكرة ، كما أن شوقه الشديد للمحبوبة مستمر .

وهناك صورة أخرى من صور الغزل العفيف ، فيها يصف الشعراء ما يشعرون به من الأشواق وما يعانون من لوعة الحب والتعلق ، كما يحدثنا الكنجي [٤٣] عن حاله قبل أن يرى المحبوبة ، وما فعله الحب فيه بعد رؤية محبوبته ، يقول :[٤٤]

كنتُ خِلْواً من الغرامِ ووجدي ... في انتقاصٍ وصحتي في ازديادِ
نظرَتْ مُقْلتي إليه فأوْرَتْ ... ما أقاسي من لوعةٍ واتقادِ
يا لها نظرة أثارت بقلبي ... من دواعي الغرامِ قدحَ الزِّنادِ
كيف أسلوهُ أو يروقُ لعيني ... غيرُ مَرْآهُ وهو ملْءُ فؤادي

كان الشاعر بحال طيبة وصحة جيدة قبل أن يرى محبوبته ، فلما رآها تبدلت أحواله ، وصار يعاني من نيران الغرام التي تشتعل في قلبه ، وهو لا يستطيع أن ينسى محبوبته لأن حبها يملأ قلبه.

ومن شعراء الغزل العفيف من يتمنى زوال الحب من قلبه حتى يستريح ، وفي هذا المعنى يقول مرعي الكرمي [٤٥] ، في قصيدته التي منها :[٤٦]

---

(٤٣) هو محمد بن أحمد بن محمود بن محمد الكنجي الدمشقي ، تقلب والده في المناصب القضائية ، وأصله من مدينة كنجة الواقعة بين خورستان وأصبهان ، توفى والده سنة ١١٠٧هجرية . أما ولده محمد ـ شاعرنا ـ فلم نقف على تاريخ وفاته (ريحانة الألبا ٤٩/٦).

(٤٤) ذيل نفحة الريحانة شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٧م ، ط الأولى ، ٥٦/٦.

(٤٥) هو مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن يوسف بن أحمد الكرمي ، نسبةً لطور كرم قرية بقرب نابلس ، انتقل للإقامة في مصر ، وأصبح أحد أكابر علماء الحنابلة فيها ، كان إماماً محدثاً فقيها واسع الاطلاع في مختلف العلوم ، صنف عشرات الكتب والرسائل العلمية ، منها :

ليت في الدهر لو حظيت بيومٍ فيه أخلو من الهوى والغرامِ
خاليَ القلبِ من تباريحِ الهوى وصدودٍ وحُرقةٍ وَهَيامِ
كي يُراحَ الفؤادُ من طولِ شوقٍ قد سقاهُ الهوى بكأسِ الحُمامِ

إلى غير ذلك من شعر يدخل في دائرة الغزل العفيف الذي اختلفت معانيه كما اختلفت مصادره بين دواوين شعرية وكتب.

ومن الغزل الذي يصور معاناة الشاعر ويصف تباريح الهوى ، ما قاله الخشاب [٤٧] من قصيدته التي جاء فيها : [٤٨]

طرفي عليك بميل السهد مكتحل شوقاً إليك وفيك الدمع منهمل
أبيت ليلي سمير النجم أرقبه لا ذقت بثي وجنح اليل منسدل
تالله تالله قد أوهى الهوى جلدي وعيل صبري وازدادت بيَ العِلَلُ
لا كان يوم النوى لا حان موعده يومٌ تسيرُ به روحي وترتحل
واحر قلباه ممن أشتكيه ومن حرِّ الفراق ومن عينيك ما فعلوا
ومن لواعج أشواقٍ أعالجها يضرمن في مهجتي ناراً فتشتعلُ
ملكتَ قلبي ولُبِّي قد سلبتَ فلا برأ أراه ولا حولٌ ولا حيل
فارفق بصبٍّ مشوقٍ ذاب فيك أسى وكاد يغشاه من وشك النوى الخَبَلُ
..... إلخ

دليل الطالب في الفقه ، ودليل الطالبين لكلام النحويين ، ومقدمة الخائض في علم الفرائض ، وله ديوان شعر ... توفى بمصر سنة ١٠٣٣هجرية (خلاصة الأثر ٣٥٨/٤).

(٤٦) خلاصة الأثر ٣٦١/٤.

(٤٧) هو السيد إسماعيل بن سعيد الشهير بالخشاب . كان أبوه نجاراً ثم اشتغل بتجارة الخشب ، بدأ حياته الدراسية بحفظ القرآن ثم تلقى على شيوخ عصره الفقه وأصول الدين وعلوم اللغة ، وقد اشتهر ديوانه في ذلك الوقت ، وقد أصيب الخشاب في آخر حياته ببعض الأمراض . ولما مات صلي عليه بالأزهر في مشهد حافل . ودفن بمقابر الحسينية (الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ، ص٢٤٧).

(٤٨) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ، ص٢٢٦.

تظهر العاطفة الصادقة للشاعر من خلال تعبيراته في هذه القصيدة ؛ حيث ينقل لنا مشاعره الحاره نحو محبوبته ، ويخبرنا الشاعر أن عينه لم تكتحل بنوم ، وهو دائم البكاء من شوقه إلى محبوبته . وعشق الشاعر قد أضر به كثيراً ؛ فهو يعاني آلاماً نفسية وأمراضاً جسدية بسبب حبه. وتشتعل نيران الشوق بين جوانحه حتى تكاد أن تهلكه وتصيبه بالجنون.

٣ ـ شعر الرثاء

قسم شعر الرثاء على أساس قوة العاطفة وفتورها إلى ثلاثة أقسام :

١ـ التدب : وهو أقوى أنواع الرثاء عاطفةً لأن الشاعر يبكي فيه نفسه أو جزءاً من كيانه، "والندب هو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية ، وتذيب العيون الجامدة ، إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع " [٤٩] ، لذا فيوجد هذا النوع من الرثاء في بكاء الأبناء والأقارب المقربين ، ومنه أيضاً بكاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وبكاء المدن والممالك الزائلة.

٢ـ التأبين : هو شعر المواقف الرسمية ، وفيه تراوح العاطفة بين الفتور والمجاملة التي يعوزها الصدق ، ويرثي الشاعر فيه ذوي الجاه والسلطة ، كالخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء ، ويجتهد في تعديد مناقب الميت وصفاته.

٣ـ العزاء : وفيه تخف شدة الصدمة ويعود الشاعر إلى نفسه يفكر في الكون وخالقه ، والوجود والعدم ، ويحلل من خلالها حقيقة الموت حسب فلسفته الخاصة ، لذا غالباً ما تكون معاني هذا النوع من الرثاء حكيمة ، كما تتسم بالعمق والغوص في دخيلة النفس أو الكون ، كما تتسم عاطفته بالهدوء [٥٠] .

---

(٤٩) الرثاء ـ شوقي ضيف ، طبعة المعارف ، مصر ١٩٧٩م ، ص١٢.

(٥٠) المرجع السابق ، ص١٣.

ومما يعد من شعر **الندب** في العصر العثماني **ما رثى به مرتضى الزبيدي** [٥١] **زوجته** ، حيث قال :[٥٢]

زبيدة شدت للرحيل مطيها غداة الثلاثا في غلائلها الخُضر

إلى أن قال :

سأبكي عليها ما حييتُ وإن أمت ستبكي عظامي والأضالعُ في القبرِ

ولستُ بها مستبقياً فيضَ عَبرةٍ ولا طالباً بالصبرِ عاقبةَ الصبرِ

تظهر لنا عاطفة الشاعر الصادقة الحارة ويتبين من خلالها شدة حب الشاعر لزوجته وشدة حزنه على فقدها ، فهو سيبكيها طيلة حياته ، وحتى بعد موته ستبكيها عظامه وضلوعه.

ويقول في رثائها أيضاً:[٥٣]

يا لهف نفس حسن أخلاقٍ لها جبلت عليه ووصلة الأرحام

وإطاعة للبعل ثم عناية صرفت لإطعامٍ ولينِ كلامِ

تلك المكارم فابكها ما رنحت ريح الصبا سحراً غصون بشامِ

يبكي الشاعر زوجته بكاءً حاراً ، حيث يعدد صفاتها الجميلة التي عاشت بها معه ، فهي ذات الأخلاق الحسنة واصلة للرحم مطيعة لزوجها تطعم الطعام وتلين الكلام ، فحق لامرأة مثلها أن يبكيها زوجها ، ثم يصل بنا الشاعر إلى أبيات مبكية غاية في التأثير ، بقوله :

---

(٥١)الفقيه المحدث اللغوي النحوي الأصولي الناظم الناثر الشيخ أبو الفيض السيد مرتضى الزبيدي (١١٤٥- ١٢٠٥هـ)هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرازق الشهير بمرتضى الحسيني ، ولد بزبيد ونشأ بها. ثم رحل في طلب العلم وحج مراراً . واجتمع بعلماء مكة وأخذ عنهم ، وله شعر كثر ، بعضه في ترجمته التي أوردها الجبرتي ، وبعضه في اللوائح الأنوارية . وقد أصيب بالطاعون ومات بالطاعون ١٢٠٥هـ (عجائب الآثار في التراجم والأخبار - الجبرتي ٢٠٨/٢).

(٥٢) الجبرتي ٢١٥/٢.

(٥٣) الجبرتي٢١٥/٢.

يا وارداً يوماً على قبرٍ لها قف ثم راجع من شجٍ بسلامِ
وقل لها قد كنت فيما قد مضى تأتي له عند اللقا بمقامِ
فاليوم مالك قد هجرت فهل لذا سببٌ فقولي يا ابنة الأعلامِ

إن الشاعر يعلم جيداً أن زوجته لن تأتيه ولن تجيبه لأنها ماتت ، ولكنه يتمنى ذلك ، وهذا محال ، لذلك فالأبيات السابقة مؤثرة مبكية وفيها دلالة قوية على مدى تفجع الشاعر على زوجته وصدق عاطفته وحرارتها.

ومن شعر الندب أيضاً ما رثى به الإدكاوي نفسه ، حين قال :(٥٤)

ليت شعري إذا دنا يا رفاقي أجلي ثم هيأوا لي ترابي
واغتدوا بي إلى محل به صحـ ـبي جفوني وليس يُرجى إيابي
هل إذا غربلوا التراب أيلقوا ذرة من عظمي فيالمصابي
ويح هذي الدنيا التي تحرق الأكـ ـبادَ قد مزقت بلحدي إهابي
وبذاك القفرِ اغتديتُ رهيناً ليس لي من زادٍ ولا من ركابِ

يصور لنا الشاعر مشهداً محزناً ؛ حيث يتخيل أنه مات وحُمِل للدفن إلى مكان لا رفاق فيه ولا أحباب ، ولا يتوقع أن يرجع منه مرة أخرى . ثم يتحسر على جسمه الذي بلي وفنى فلم يبق منه شيء .ويبين لنا الشاعر حال الدنيا التي تحزننا في حياتنا وتمزق أجسادنا بعد دفننا في التراب . ثم يؤكد لنا الشاعر معنى أن القبر هو مكاننا الذي نمكث فيه إلى وقت الحشر ، وهذا القبر لا زاد فيه ولا ركاب. وهذا المعنى الذي نقله لنا الشاعر يعد مؤثراً ، وهذا يدعونا إلى أن نحسن أعمالنا وأقوالنا استعداداً لهذا اليوم ، ولكن الشاعر صور لنا القبر بأنه موحش لا أنس فيه ولا سعادة وفاته أن السعادة أو الشقاء في القبر مرهونان بالعمل ، فالقبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران.

ولا شك أن هذه الأبيات تنبض بصدق العاطفة وحرارتها.وإن كان في تعبيرها بعض الركاكة. ومما يعد من قبيل **الندب** في شعر الرثاء في العصر العثماني **رثاء دولة المماليك** .

---

(٥٤) الجبرتي ٣٥٨/١.

لما زالت دولة المماليك رثاها العديد من الشعراء ، من ذلك ما قاله الشاعر :(٥٥)

نوحوا على مصر لأمرٍ جرى من حادثٍ عمت مصيبته الورى
زالت عساكرها من الأتراك في غمض العيون كأنها سنة الكرى

يحث الشاعر المسلمين على بكاء مصر للمصيبة التي ألمت بها بزوال دولة المماليك ، ومجيء العثمانيين بدلاً منهم ، ولاشك أن الشاعر كان يبغض تعسف بعض الحكام الأتراك ، لذلك أخذ يعدد مناقب المماليك وبطولاتهم ، ويحط من شأن العثمانيين بذكر بعض المظاهر غير المقبولة التي تمثلت في هيئة العساكر الأتراك ، كما بين أنه لا يمكن تمييز الأمير من الحقير فيهم ، وذلك في قوله :

وأتى إليها عسكر سيماهم حلق الذقون ولبس طرطورٍ يُرى
لا يُعرف الأستاذ من غلمانه وأميرهم بين الأنام تحقرا

ويعود الشاعر إلى التحسر على النظام السابق للمماليك ، ذلك النظام الذي تميز بالترتيب والحسن. وذلك في قوله :

أين الملوك بمصر من طلعاتها مثلُ البدور تضي وكانت أنورا
يا لهفَ قلبي للمواكبِ كيف لم نلقى بقلعتها الحزينة عسكرا
لهفي على ذاك النظامِ وحسنِهِ ما كان في الترتيب منه أفخرا

ومما يدل على شدة الحزن والأسى بزوال دولة المماليك ، قول الشاعر :(٥٦)

زالت محاسن مصر من أشياء قد كانت بها تزهو على كل الورى
لهفي على الأمراء كيف تشتتوا وخلت منازلهم وعدت مقفرا
لهفي على أتراك مصر إذا غدت مكسورةً وقلوبها لن تُجبرا
لهفي على الفرسان كيف تقطعت أعناقها بيد العدو إذ افترى
صارت على الطرقات من أجسادهم رممٌ حكت عيدَ الضحايا الأكبرا

---

(٥٥) بدائع الزهور في وقائع الدهور- محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ، تحقيق : محمد مصطفى ، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ١٩٨٢م ، ٥/١٩٨-٢٠٢.

(٥٦) بدائع الزهور ٥/١٩٩- ٢٠٠.

يبدو عنصر الصدق في العاطفة واضحاً في هذه القصيدة التي يعد الرثاء فيها من قبيل الندب ؛ فقد تميزت الأبيات بحرارة العاطفة ، التي نبعت من الحزن الشديد ، والحسرة المفرطة التي دلت عليها كلمات مثل " نوحوا " و" لهفي " .

وعلى الرغم من أن **رثاء أهل الدين والعلم** يعد من قبيل **التأبين أو العزاء** ، وهذا النوع تفتر فيه العاطفة ويعوزها الصدق أحياناً إلا أن هذا النوع من شعر الرثاء في العصر العثماني ، ينبض بصدق العاطفة وحرارتها ، فيمكن أن ندرجه في باب "الندب" وذلك مثل قول الإدكاوي في رثاء الشيخ محمد العشماوي [٥٧] الذي مات سنة ١١٦٧هجرية ، ومطلعها :[٥٨]

ما بين حرقة أدمعي وتولُّهي ... نارٌ يؤججها لهيبُ تولهي

وحشاشةٍ ذابت وقلبٍ كلما ... وجهته للصبر لم يتوجهِ

يا أمة الإسلام يا شمس الهدى ... علماء من مبتدي أو منتهي

قد مات عشماويكم تباً لمن ... بالمجد عن ثوب التأسف ينتهي

يا حزن دم يا دهر سم رتب التقى ... من بعده وافعل بها ما تشتهي

يا أرض ميدي يا سماءُ تشققي ... يا شمسُ نوحي يا نجومُ تأوهي

يا أعين الفضلاء في روضٍ له ... من بعده بالله لا تتنزهي

القصيدة السابقة مؤثرة ومبكية ، وفيها دلالة واضحة على حب الشاعر للشيخ العشماوي وحزنه الشديد لموته ، وفي ذكر اسم المرثي ما يدل على تعلق الشاعر به ، وفي هذا ما فيه من صدق العاطفة مع فورانها. ومما يرجح كونها من شعر الندب ذكر الشاعر لكلمات التوجع والحرقة والأسى مثل (نوحي ـ تأوهي ، يا أرض ميدي ، يا سماء تشققي ، ...).

---

(٥٧) الإمام الفقيه المحدث محمد بن أحمد بن يحيى بن حجازي العشماوي الشافعي الأزهري أخذ عنه غالب فضلاء العصر توفي يوم الأربعاء ثاني عشرين جمادى الأولى سنة سبع وستين ومائة وألف ودفن بترة المجاورين (عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ الجبرتي ١/١٩٦).

(٥٨) عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ الجبرتي ١/١٩٦.

ومثل رثاء الإدكاوي للشيخ حسن المدابغي [٥٩] المتوفى سنة ١١٧٠هجرية ، وذلك في قصيدته التي جاء فيها :[٦٠]

مضى عالِمُ العصر الإمامُ لربه حميدَ المساعي فانْدُبَنْهُ وبالغِ
ولما قضى ذاك المهذبُ نحبَهُ وآبَ برضوانٍ من الله سابغِ
دعوتُ أحبائي وقلتُ لهم قِفوا معي عند ذا التاريخ نبكي المدابغي

ويقول في رثائه من قصيدة أخرى:[٦١]

والحورُ جاءتك بالبشرى مؤرخةً حُلِّيتَ من حُلَلِ الأبرارِ يا حسنُ

ومما يعد من باب **التأبين** في شعر الرثاء ، **مراثي الأمراء والحكام** ، مثل قول الشيخ محمد الغمري [٦٢] في رثاء الأمير إسماعيل بن إيواظ [٦٣] المتوفى سنة ١١٣٦هجرية ، في قصيدته التي منها : [٦٤]

أفي أمانٍ وسيفُ الأمن قد غُمدا وبدرُ أفق سماء العدلِ قد فُقدا

---

(٥٩) الفقيه المحدث الورع الشيخ حسن بن علي بن أحمد بن عبد الله الشافعي الازهري المنطاوي الشهير بالمدابغي ، خدم العلم ودرس بالجامع الأزهر وأفتى وألف وأجاد ، توفي في عشرين شهر صفر سنة سبعين ومائة وألف (عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ الجبرتي ٢١٥/١).

(٦٠)عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ الجبرتي ٢١٥/١.

(٦١) المرجع السابق : الصفحة نفسها.

(٦٢) محمد بن أحمد بن محمد العمري الدمشقي الصوفي ، كان من أحسن خلق الله على شكله المهابة ، كان مداوماً على الدرس انتفع به خلق كثير ، مات يوم الأحد في السابع من صفر سنة ثمان وتسعين وألف ، دفن بمقبرة الفراديس (خلاصة الأثر ٣٩٣/٣).

(٦٣) الأمير المعظم الملاذ المفخم من بيت العز والسيادة والإمارة ، كان جميل الذات والصفات وتقلد الإمارة بعد موت والده الشهيد ، وكان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة (الجبرتي ١١٨/١).

(٦٤) الجبرتي ١٢٥/١.

وشمسُ نصر عباد الله قد كُسِفت ودولةُ العز ماتت بالذي لُحِدا
كم قد أغاث فقيراً من ظُلامته وأبدل الجور عدلاً والفسوقَ هدى
فالآن حق لكم ذوب الفؤاد أسى فقد فقدتم وحق الله كل ندى
وقد فقدتم أميراً لا نظير له في دولة المجد لا خلى ولا ولدا
نجل لإيواظ إسماعيل فاق على أقرانه ولجمع الخير انفردا
والله يرحمه فضلاً ويلهم من بقى من الدولة الإصلاح والرشدا

ومما يعد من رثاء السلاطين العثمانيين ، ما قاله محمد بن بستان المفتي [٦٥] في رثاء السلطان سليمان القانوني [٦٦]، ومنها :[٦٧]

ألا أيها الناعي كأنك لا تدري بما قلت من سوء المقالة والنشر
سللت سيوف الموت في الدهر بغتةً وقد بلغ السيلُ الزُّبى من جوى الصدر
همامٌ على هام الممالك تاجُهُ أمينٌ رشيدٌ في الخلافةِ ذو قدر
أأعني جواداً في جوادٍ بذكره لقد ساربت الرُّكبان في البرِّ والبحرِ
عزيمتُهُ في البحر كانت عظيمةً وهمتُهُ فاقت على الأنجم الزُّهْرِ
وأيامُهُ في الشمسِ كانت مضيئةً وأعوامُهُ في الحسن أبهى من البدر

---

(٦٥) محمد بن مصطفى الرومي ، مفتي الديار المصرية ورئيس علمائها ، عرف أبوه بلقب بستان ، تدرج في العديد من المناصب ، ولي قضاء الشام سنة ٩٨١هجرية ، ثم قضاء مصر ، ثم قضاء العسكر في القسطنطينية ، ثم مفتياً سنة ٩٩٧هجرية ، توفي بالقسطنطينية سنة ١٠٠٦هجرية (خلاصة الأثر ٤/٢٢٣).

(٦٦) ولد هذا الملك في شعبان سنة ٩٠٠هجرية ، وهو عاشر ملوك آل عثمان ، بلغت الدولة العلية في مدته أعلى درجات الكمال ، توفي السلطان سليمان القانوني سنة ٩٧٤هجرية (تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ ص١٩٨).

(٦٧) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ـ المحبي ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٧١م ، ط الأولى ، ٣/٧٤ ـ ٧٥.

وما قيل إجمالٌ لبعض صفاته ولا يمكن التفصيلُ بالنظم والنثر
فهاتيك أوصافٌ لعمْري جليلةٌ فدونكها أبهى من الزَّهرِ والزُّهْرِ
على صفحةِ الخدين أمليتُ ما جرى بأقلام أهدابٍ من البؤسِ والضُّرِّ

بعد أن صور الشاعر وقع خبر وفاة السلطان على نفسه ، وأظهر أثر هذه المصيبة على المسلمين ، انتقل إلى المعاني التي تتصل بالحكم وصفات السلطان الحاكم ويجملها في قوله : " أمينٌ رشيدٌ في الخلافةِ ذو قدْرٍ" ، ثم يضيف لها صفات أخرى كعلو الهمة والشجاعة والكرم ، ويذكر شجاعته في الحروب بقوله : " عزيمته في البحر كانت عظيمةً " ، ويشير إلى استقرار حكمه وحسن إدارته لشئون البلاد فيقول " وأيامه كالشمس كانت مضيئة .. " ، ثم يقر الشاعر بأن صفات المرثي تعز على الحصر ، وأن ما ذكره من الصفات قد كتب بأهداب العيون الباكية على صفحات الخدود الحزينة.

ونحن لا نجزم بصدق العاطفة في هذا المقام ، فإن كانت الكلمات معبرة عن الحزن إلا أنها لا تصل إلى درجة الندب. كما أن استرسال الشاعر في بيان صفات الممدوح يدل على هدوء العاطفة ، وعدم حدتها ، وعليه فيعد هذا الرثاء من نوع (التأبين)؛ فهو من شعر المواقف الرسمية الذي تتراوح فيه العاطفة بين الفتور والمجاملة.

مما سبق يتبين أن شعر الرثاء في العصر العثماني لم يكن على درجة واحدة ، فمنه ما اشتعلت فيه العاطفة وزاد لهيبها (الندب) ، ومنه ما افتقد عنصر الصدق في العاطفة في بعض الأحيان (التأبين)، ومنه ما كانت العاطفة فيه معتدلة وهادئة ، وعبر فيه الشاعر عن حزنه بحكمة وعقل (العزاء).كما تختلف معاني الرثاء حسب تنوع مناصب وصفات المرثيين ، فما يقال في رثاء سلطان يختلف عما يقال في رثاء عالم أو رجل دين

٤ ـ شعر المديح :

من المشهور بين الأدباء والباحثين أن مدح الملوك والقادة يفتقد عنصر الصدق في العاطفة ؛ فشعر المدح من هذا النوع ـ في الغالب ـ يكون لغرض التكسب ونيل رضا أصحاب النفوذ والسلطان . ولكن شعر المدح في العصر العثماني قد تحلى بصدق العاطفة والمشاعر؛ فالشعراء في العصر العثماني لم يكونوا مادحين مأجورين ينظمون القصائد في مدح الظالمين . بل عبروا عن رأي الشعب فمدحوا من استحق المدح ،

وهجوا من استحق الهجاء .فقد عرف السلطان سليم بالظلم والبطش ، فلما مات فرح المصريون ، وأحسوا أن الله ـ عز وجل ـ قد أزال عنهم بلاءً كبيراً بموته ، قال ابن إياس :(٦٨)

وأراد الخلودَ مَن مَلك مصر	قلت هيهات رمت هذا محالا
طردته عنا سهام الدياجي	بدعاء فيها يفوق النبالا
بعد ما جار في الأنامِ بقتلٍ	من جيوشٍ تدق منه الجِبالا
فاستجاب الدعاء ومَنَّ علينا	بانفراجِ الهمومِ جَلَّ تعالى
وأتتنا أخبارُهُ بزوالٍ	صيرت رشدُهُ حقيقاً ضلالا
زال عنا بموته بجمرة	دون حرب وكفى الله المؤمنين القتالا

لقد استجاب الله ـ عز وجل ـ دعاء المظلومين الذين دعَوْا عليه في جنح الليل ، وهذه الأدعية أفضل من النبال في إصابة الظالم . فهذا السلطان طغى وتجبر وظلم وتكبر ، فأمهله الله ـ عز وجل ـ ثم أخذه أخذ عزيزٍ مقتدر ؛ حيث أصيب بجمرة (ورم خبيث) قبل موته.

كذلك عبر الشعراء المصريون عن فرحهم لموت خاير بك أول من ولي حكم مصر من قِبَل العثمانيين ، وذلك لظلمه وطغيانه ، فقال ابن إياس : (٦٩)

اعجبوا من نائبٍ في مصرنا	خانه الدهر وجازاه العمل
زال عنه الملك والمالُ معاً	وأتاه الموتُ يسعى بالعجلْ

ومن الولاة الذين عرفوا بالصلاح وحسن السيرة عبد الله باشا الكبورلي الذي ولي مصر سنة ١١٤٢هجرية ، فقد مدحه عبد الله الشبراوي قائلاً(٧٠):

---

(٦٨) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ـ محمد سيد كيلاني ، ١٧٥.

(٦٩) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ـ محمد سيد كيلاني: ص ١٧٦.

(٧٠) الجبرتي١/١٤٩ ، ١٥٠.

أقام العدل في مصر وأحيا معالمه بها بعد الدثور
وساس الملك دهراً فاستقامت بقوة عزمه كل الثغور
وقد ورث العلا فرضاً ورداً أميراً عن أمير عن أمير
ويقضي في البرية لا بظلمٍ يعابُ به القضاءُ ولا يجورُ
تجمعت المحاسنُ فيه حتى لعمر أبيك فاق على كثير

ومن مدح السلاطين وذكر فتوحاتهم وتمجيد بطولاتهم ، ما قاله عبد اللطيف البهائي البعلي(٧١)

في مدح السلطان محمد خان الرابع (٧٢) بعد افتتاح قلعة "إيوار" سنة ١٠٧٤هجرية ، في قصيدته التي منها : (٧٣)

لم يألُ جهداً في الجهاد ولم يزل يسعى بإرسال الجيوش مكمَّلا
في نصرة الدين المبين مجاهدا براً وبحراً للعساكر مُرْسِلا
عن حومة الإسلام ذبَّ عداته وأباد عباد الصليب وزيلا
مازال يضرع في الدعاء لربه سراً وجهراً مجمِلاً ومفصِّلا
فأتته بشرى الفتح وهو ملفَّعٌ ثوبَ السعادةِ بالجلالِ مسرْبَلا

---

(٧١) هو عبد اللطيف بن بهاء الدين بن عبد الباقي البعلي الحنفي المعروف بالبهائي ، القاضي الأجل الأفضل، كان بارعاً في كثير من الفنون مفرط الذكاء قوي الحافظة ألف تآليف حسنة تدل على قوة باعه في العلوم (خلاصة الأثر ، ج٣ ، ص١٤).

(٧٢) انفرد بالملك ولصغر سنه وقعت المملكة في الفوضى ، تم عزله وبقي معزولاً إلى أن توفي في ٨ ربيع الآخر سنة ١١٠٤هجرية ، بالغاً من العمر ٥٣سنة ، وقد حكم أربعين سنة وخمسة أشهر (تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ ص٢٨٩).

(٧٣) خلاصة الأثر ٣٥٤/١ .

يمدح الشاعر ممدوحه بالشجاعة والتقوى ، فمن مظاهر شجاعته أنه يجاهد براً وبحراً ، وذلك لا لشيء إلا لنصرة الإسلام والذود عن حياضه ، ومن مظاهر تقواه أنه يدعو ربه سراً وجهراً لتحقيق النصر على الأعداء ، ولا يزال يدعو ربه حتى يأتيه النصر والعزة .

وهذا ، لا يعني أن جميع الشعراء في هذا العصر تميزوا بصدق العاطفة ، فقد كان هناك شعراء - وإن كانوا قلة - يتملقون الحكام ليتكسبوا بشعرهم ، ويحصلوا على العطايا والهبات ، وذلك ما أشار إليه أحد الشعراء[٧٤] حينما مدح الأمير منجك [٧٥]، فقال :[٧٦]

حرسته شَوْكةٌ حسنه عن أن تمد له الأيادي
والعندليب أمامه بفصيح نغمته ينادي

أما مدح رجال الدين والعلم ، فلا نشك في صدق العاطفة لدى قائله . ومن ذلك قول الشاعر ابن القطان [٧٧] في مدح القاضي علاء الدين علي بن عبد الله العشاري الحلبي المعروف بابن الحنبلي : [٧٨]

ضاءت بمنصبه الشهباءُ وهو بها لنصرةِ الحق لا وانٍ ولا قلقِ
يؤمه العاجزُ الملهوفُ ينجده نعم ويخرجه من أضيق الطرقِ
له السيادةُ في الدنيا مؤبدةٌ على الدوام مدى الأيام في نسقِ
قاضي القضاةِ رقى في المجدِ منزلةً تعلو على الدهرِ والأفلاكِ والأفقِ

---

(٧٤) هو فتح الله بن عبد الله بن النحاس الحلبي ، أكثر من التنقل ، دخل دمشق مرات ، وأقام بمصر مدة .... توفي بالمدينة المنورة سنة ١٠٥٢هجرية (خلاصة الأثر ٣٥٤/٤).

(٧٥) هو الشاعر الأمير منجك بن الأمير محمد بن منجك ، الشركسي الدمشقي ، ولد بدمشق سنة ١٠٠٧، وتوفى فيها سنة ١٠٨٠هجرية (خلاصة الأثر ٤٠٩/٤).

(٧٦) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني - محمد سيد كيلاني ، ص٥٨.

(٧٧) هو الشاعر علي بن عبد الله المعروف بابن القطان ، المتوفي سنة ٩٣٢هـ.

(٧٨) الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء - أحمد فوزي الهيب ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٦م ، ط الأولى ، ص٢٤٠.

مدح الشاعر ممدوحه بالعدل والنزاهة ونصرة الضعيف ، وهي من الصفات التي نرجوها جميعاً في القضاة.

مما سبق يتبين أن مدح السلاطين والقادة في العصر العثماني تحلى بصدق العاطفة والمشاعر ؛ فلم يكن هناك ما يدعو إلى المجاملة والمحاباة ؛ لأن الممدوحين رفعوا راية الحق وجاهدوا لنصرة الإسلام ، فاستحقوا بذلك التقدير والتبجيل من الشعراء. وإن وجد من الشعراء من جامل السلاطين للحصول على عطايا وهبات ، فهؤلاء لم يمثلوا ظاهرة ، ولم يدلوا على طابع عام لشعر المدح في العصر العثماني . وما قيل من مدح في حق العلماء ورجال الدين ـ في معظمه ـ يخلو من المجاملات.

إن الشعر العربي في العصر العثماني قد تمتع بصدق العاطفة وحرارتها ويبدو ذلك واضحاً في الأشعار التي تتعلق بالعقيدة وشعر الرثاء وخاصة ما يسمى بالندب وشعر الغزل العفيف ، كما تسربلت بعض النماذج الشعرية بثوب المجاملة وقد ظهر ذلك في بعض أنواع الرثاء كالتأبين والعزاء ، وأيضاً بعض أبيات المديح.

المبحث الثاني

المضمون الشعري بين الطبع والتكلف

إن كثيراً من الشعراء في العصر العثماني كانوا " يكرهون التكلف والتزام الصنعة ، واستخدام المحسنات اللفظية من جناس وطباق ومقابلة إلا ما أتى عفواً ، ويفضلون أن يترك الشاعر نفسه على سجيتها " (٧٩) .

فمن **الشعراء المطبوعين** الذين جرى شعرهم على السليقة الشاعر **حسن البدري** ؛ فهو " له في الشعر طريقة بديعة وسليقة منيعة على غيره رفيعة ، وقلما تجد في شعره حشواً أو تكملة " (٨٠) ومن شعره الذي يبدو فيه الطبع واضحاً بعيداً عن التكلف ، قوله في النصائح : (٨١)

أخي فطناً كن واحذر الناس جملةً ولا تك مغرور الظنونِ الكواذبِ
فكم من فتى يرضيك ظاهر أمره وفي باطن يرتاغ روغ الثعالب

وقوله : (٨٢)

وأنقص خلق الله عقلاً فتى غدا بقبضة أنثى لعبة المتلاعب
يروح ويغدو صادراً عن مقالها يرى طوعها ما عاش أوجب واجب
فذاك الذي لم يحو إلا ندامة ومتعبة فاقت جميع المتاعب
بهذا أتانا النص من أشرف الورى محمد المبعوث من آل غالب

وكان من الشعراء المطبوعين أيضاً **الشمسي** ؛ فقد كانت " له سليقة شعرية مقبولة " (٨٣) ومما كتبه في عنوان كتاب : (٨٤)

---

(٧٩) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ـ سيد كيلاني ، ص٥٨.

(٨٠) الجبرتي ١/٧٨.

(٨١) الجبرتي١/٧٩.

(٨٢) الجبرتي١/٧٩.

(٨٣) الجبرتي٢/٢٢٥.

(٨٤) الجبرتي ٢/٢٢٥.

أدين الله مالك من نظيرٍ ولا لك في التقى والفضلِ ثاني
سألتُ الله أن تبقى بعزٍّ ولا يُثنيك عما شئت ثاني

وكذلك **مرتضى الزبيدي** الذي قال في بعض نصائحه :(٨٥)

توكل على مولاك واخش عقابه وداوم على التقوى وحفظ الجوارح
وقدم من البر الذي تستطيعه ومن عملٍ يرضاه مولاك صالح
وأقبل على فعل الجميل وبذله إلى أهله ما اسطعت غير مكالح

وقد انتشر **ارتجال الشعر** بين كثير من الشعراء ، و ظهر ذلك جلياً في سهراتهم الخاصة التي كانت تجمع بينهم ، وفي المجالس الأدبية التي كثرت في ذلك العصر.

وممن اشتهر بالارتجال في ذلك العصر: **قاسم بن عطاء الله** المتوفي سنة ١٢٠٤هجرية ، وهو الشاعر الذي " .. صار وحيد عصره في هذه الفنون ـ الشعر والزجل ـ بحيث لا يجاريه أحد مع ما لديه من الارتجال في الشعر مع غاية الحسن . وكان الشيخ العيدروس يتعجب منه ويقول: هو ممن يلقنه جني" (٨٦) . وممن كان يرتجل الشعر أيضاً **ابن الصلاحي** (٨٧)، الذي قال مرتجلاً في مجلس إخوان : (٨٨)

لله يوم قطعنا فيه زهر منى والأنس قلدنا منه بطوق منن
وقد تجلى عروس الروض في حُللٍ من الربيع وحيانا بوجه حسن

ومما دار بين **قاسم وابن الصلاحي من ارتجال الشعر** :

---

(٨٥) الجبرتي ٢/٢٢١.

(٨٦) الجبرتي ٢/١٩٦.

(٨٧) السيد العالم الأديب الماهر الناظم الناثر محمد بن رضوان السيوطي الشهير بابن الصلاحي (١١٤٠ ـ ١١٨٠هـ) ، ولد بأسيوط على رأس الأربعين ، ونشأ هناك ، ولما ترعرع جاء إلى القاهرة وحصل العلوم ، مال إلى الأدب وأخذ منه بالحظ الأوفر (عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ الجبرتي ١/٢٧٠).

(٨٨) الجبرتي١/٢٨٥.

ما جاء من أن قاسم بن عطاء الله كان في مجلس من الأدباء فكتب إلى ابن الصلاحي يستدعيه الحضور لذلك المجلس ما نصه : (٨٩)

مولايَ يا نجل الصلاحي فديت منا بالنواظر
امنن وصحح جمعنا بجميل ذاتك والمآثر
وإذا حضرت تفضلاً فاللطف عاداتُ الأكابر
نثر الغمام على الربا من فيضه يتم الجواهر
ونريد نحظى عند نطقك بالفرائد والأزاهر

فكتب ابن الصلاحي مرتجلاً قبل حضوره :

أتاني وذيل الأنجم الزهر يعثر وكف الثريا للفراقد تستترُ
وقد نظم الدر المنظم فازدرى بما كان من در السحائب يقطرُ
وكيف ودر القطر در مبددٌ ونظمكم عقد من الروض مثمرُ
فحرك شوقاً كان من قبلُ في الحشا كميناً لأن الشيء بالشيء يذكرُ
فجئناكم سعياً على العينِ لم يكن ليمنعني خوفاً ولا ما يعثرُ
ولا زال هذا الجمعُ جمعَ سلامةٍ وجمعُ أعاديه قليلٌ مكسرُ

ومنه ما ورد من اجتماع قاسم ابن عطاء الله يوماً في مجلس به جماعة من الأدباء كالشيخ محمد بن الصلاحي والشيخ عامر الزرقاني ، وكان اليوم مطيراً . فقال ابن الصلاحي مرتجلاً(٩٠):

لقدومكم ضحك الغما مُ فعلم العينَ البكا
ما ذاك إلا أنه لنوال كفك قد حكى

فقال قاسم :

أفديك بالعينين يا نجل الصلاح مع الذكا
هطل الغمام كأنه لعزيز جاهك قد شكا

---

(٨٩) الجبرتي ١٩٩/٢.

(٩٠) عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ الجبرتي ١٩٨/٢.

وممن عرف **بارتجال الشعر** في العصر العثماني **محمد شبانة** [٩١] وقد كانت " سليقته في الهجو أجود منها في المدح " [٩٢]، ومن ذلك ما قاله يداعب به قاسم بن عطاء الله [٩٣] في قصيدته التي منها :[٩٤]

سبحان من قسم النحو س لقاسم وأذل هامه
وكساه ثوب جنايةٍ يخزى بها يوم القيامه
هو ردء من هجم البيو ت وردء من خطف العمامه
يحتال في نشر الحري ـر ولو تحصن في دعامه

فأجابه قاسم بقصيدة ، منها : [٩٥]

جل الذي قسم الشقا لشبانةٍ وله أدامه
بعمامةٍ لو خالها القلا توهمها برامه
موروثة عن جده من قبل أن تبنى القمامه
إن كان ذا وجه المطيـ ـع فأين أصحاب الندامه
لو كان يصلح للصلا ة لحق للقرد الإمامه

ومن الشعراء المطبوعين في العصر العثماني الذين عرفوا **بارتجال الشعر أبو السماع البصير** المتوفي سنة ١٠٦٦هجرية ، وهو " الشاعر البديهي ، أعجوبة الزمان ، وأحد الأفراد في البديهة وارتجال الشعر . وكانت طريقته إذا أراد الارتجال أن يبدأ بإنشاد قصيدة

---

(٩١) شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠هـ ، هو الفاضل اللوذعي الذكي ، المفوه الناظم الناثر ؛ الشاعر اللبيب الشيخ محمد المعروف بشبانة . كان من نوادر الوقت . اشتغل بالمعقول ، ونظم الشعر وأجاد القوافي ، وداعب أهل عصره من الشعراء ، إلا أن سليقته في الهجو أجود منها في المدح (عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ الجبرتي ١٣٧/٢).

(٩٢) الجبرتي ١٣٧/٢.

(٩٣) عجائب الآثار ـ الجبرتي ١٩٦/١.

(٩٤) المرجع السابق : ١٣٧/٢.

(٩٥) الجبرتي : ١٣٨/٢.

من كلام أحد الشعراء المتقدمين بصوتٍ شجي . وفي أثناء إنشاده يبتدر على وزن تلك القصيدة في أي باب كان من أبواب الشعر ؛ مدحاً كان أو غزلاً أو غيرهما " [٩٦] .

وقد لا حظت أنه من صور الشعر المطبوع في العصر العثماني **(الشعر الفكاهي)** :

ومن الشعر العذب السهل المطبوع مع خلوه من الركاكة ، ما عرف به **عامر الأنبوطي** [٩٧] الذي كلما رأى قصيدة مشهورة سائرة قلبها وزناً وقافية إلى الهزل والطبخ ، " فكان الشيوخ والشعراء يتحامونه ويكرمونه ويجزلون له في العطاء ، وكان فيه ظرف يجعلهم يأنسون لكلامه ويهشون لشعره الفكه " [٩٨]. من ذلك نظمه لألفية في الطعام على غرار ألفية ابن مالك في النحو، استهلها بقوله :[٩٩]

يقول عامر هو الأنبوطي أحمد ربي لست بالقنُّوطي [١٠٠]
وأستعين الله في ألفيَّه مقاصد الأكل بها محويه
فيها صنوف الأكل والمطاعم لذت لكل جائع وهائم [١٠١]
طعامنا الضاني لذيذٌ للنهم لحماً وسمناً ثم خبزاً فالتقم
فإنها نفيسةٌ والأكل عم مطاعمٌ إلى سناها القلب أمّ
والأصل في الأخباز أن تقمرا وجوزوا التقديد إذ لا ضررا

ولا ريب في أن كل من يسمع شيئاً من أشعار هذه الألفية لا يملك نفسه من الضحك ، لأن الشاعر نقل ما نظمه ابن مالك في ألفيته النحوية الجادة منتهى الجد إلى هذه الألفية

---

(٩٦) خلاصة الأثر :١/١٢٩.

(٩٧) شاعر مفلق هجاء ، إنه كان يقيم في بلده ويلم بالقاهرة من حين إلى حين فيزور العلماء والأعيان ، كان يعرف بشعره الفكاهي (الجبرتي ١/٢٥١).

(٩٨) تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات مصر ـ شوقي ضيف ، ج٧ ، ص٣٨٤.

(٩٩)عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ الجبرتي ١/٢٥٢. وتاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات مصر ـ شوقي ضيف ، ج٧ ، ص٣٨٤.

(١٠٠) كلمة جلبتها القافية ، ولعله يريد بها اليائس.

(١٠١) الهائم : شديد العطش.

الجديدة المضحكة غاية الضحك . ورأى الشاعر أن لامية العجم للطغرائي تستولي على إعجاب الشعراء والناس منذ زمنه في القرن السادس لما تحمل من حكم وخبرات تنفع الناس في حياتهم وسلوكهم، فنظم على وزنها وقافيتها لامية في المطاعم من مثل قوله :(١٠٢)

أناجر الضان تِرياقٌ من العللِ وأصحن الأرز فيها منتهى أملي
ولا خليل بدفع الجوع يرحمني ولا كريم بلحم الضان يسمح لي
طال التلهف للمطعوم واشتعلت حشاشتي بحمام البيت حين قُلي
أريد أكلاً نفيساً أستعين به على العبادات والمطلوب من عملي

ويقول على وزن لامية ابن الوردي :(١٠٣)

اجتنب مطعوم عدسٍ وبصل في عشاءٍ فهو للعقل خبل
وعن البيسار لا تعنِ به تُمسِ في صحةِ جسمٍ من عِلل
واحتفل بالضأن إن كنت فتى زاكيَ العقل ودع عنك الكسل
من كبابٍ وضلوعٍ قد زكت أكلها ينفي عن الجسم الوجل

ومن الأبيات التي تعبر عن المعنى في سجية مطبوعة لا تكلف فيها ، والتي تظهر فيها روح الفكاهة ، ما قاله الخشاب في يوسف بن علي الكاتب ، وكان يتولى تحرير المنشورات للفرنسيين أثناء احتلالهم لمصر :(١٠٤)

إني رأيت أبا البرية آدما في النوم معتجراً ببرد معلم
فدنوتُ منه مصلياً ومسلماً وسألته في صورة المستفهم
هل كان يوسف من بنيك فإننا من ذاك في شك مريبٍ موهم؟
فأجاب وهو مصعد ومصوب عينيه فِيَّ كهيئةِ المستعظمِ

---

(١٠٢) عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ الجبرتي ٢٥٢/١.و تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات مصر ـ شوقي ضيف ، ج٧ ، ص٣٨٥.

(١٠٣) عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ الجبرتي٢٥٣/١.

(١٠٤) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ـ محمد سيد كيلاني ، ص٦٢.

حواء طالقة ثلاثاً إن يكن ممن إليَّ من البرية ينتمي

... إلخ .

يهجو الشاعر شخصاً بكلمات موجعة وعبارات مؤلمة ؛ لأن المهجو يحابي الفرنسيين المحتلين على حساب وطنه ، ويريد الشاعر أن يجرد المهجو من آدميته ، فمن يخون وطنه لا يستحق أن يكون من نسل آدم ـ عليه السلام ـ وقد عبر الشاعر عن هذا المعنى بأبيات تصور حلما رآه الشاعر في نومه . يقول الشاعر إنه رأى آدم ـ عليه السلام ـ فاقترب منه وسلم عليه وسأله عن شيء هو منه في شك ، هل المهجو من نسل آدم عليه السلام ؟ فصوب آدم ـ عليه السلام ـ عينيه في الشاعر مستنكراً أن يتبادر إلى ذهنه مثل هذا السؤال فأجابه بالنفي الذي لا يحتمل أي شك بعبارة فيها حلف بالطلاق على حواء إن كان هذا المهجو من نسله ، وفي هذا تأكيد على أن آدم ـ عليه السلام ـ يتبرأ من الشخص المهجو.

على الرغم من استخدام الشاعر لكلمات لا تليق بمقام النبوة إلا أن الأبيات تخلو من التكلف وتنساب في سهولة ويسر وفيها فكاهة لطيفة. "هذا ، وقد بلغ من كراهية بعضهم للتكلف أنهم فضلوا نظم المزدوجات لأنها أسهل من نظم القصائد " [١٠٥] وكان الفن الشعري غالباً على كثير منهم حتى إنهم استخدموا الشعر فيما يستخدم فيه النثر . مثال ذلك أن الشاعر يحيى الأصيلي[١٠٦] المتوفي سنة ١٠١٠هجرية ذهب إلى منزل أحد الأعيان فأخر الإذن له ، فكتب يقول :

على الباب من كاد من شوقه يموت وذلك يحيى الأصيلي

أتى يتغنى بأوصافكم فهل تأذنون له بالدخولِ ؟

---

(١٠٥) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ـ سيد كيلاني ، ص٥٩.

(١٠٦) يحيى بن محمد بن محمد بن يحيى الأصيلي المصري الأديب الشاعر المشهور ذكره ، قصد الحج لاداء الفرض وطوى لمشاهدة تلك المشاهد مهامه الأرض ثم انتقل من جوار بيت الله وحرمه إلى مقر رحمته وكرمه، كانت وفاته لثلاث خلون من المحرم سنة عشر بعد الألف بمكة (خلاصة الأثر ٤/٤٨٠).

وحدث أن مرتضى الزبيدي كلف عبد الله الإدكاوي أن ينسخ له كتاباً . وقام الإدكاوي بهذه المهمة ، ولكن الزبيدي أخر عليه أجره ، وأراد الإدكاوي أن يطالبه بهذا الأجر ، فلم يبعث إليه برسالة ، وإنما بعث إليه بقصيدة [١٠٧] جاء فيها :

صبَّح الله سيدي بالسعاده وحباه من كل خيرٍ مُراده
ووقاه الردى وزاد علاه رفعةً لا تني تزيد سياده
خلك المرتجى إجابة ما قد عودته عاداتك المستجاده
فتفضل وابعث بما قد تبقى ولك الفضلُ إن بعثت زياده

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً .

وقد وجد من الأمثلة الشعرية في العصر العثماني " ما يفوق هذه الأمثلة قوة وروعة ، ورقة وسلاسة وعذوبة " [١٠٨] .

هذا ، وقد لوحظ أن الشعراء في العصر العثماني حذوا حذو أسلافهم في استخدام الشعر في الإجازات العلمية ، وفي تقريظ الكتب والرسائل وبلغ من تعلقهم بالفن الشعري أنهم نظموا بعض العلوم.

مما سبق يتبين أن الشعراء في العصر العثماني كرهوا التكلف وآثروا أن يترك الإنسان نفسه على سجيتها. ومع ذلك فلم يسلم العصر العثماني من شعراء متكلفين يظنون أن الصناعة اللفظية تدل على شاعرية متميزة ، والأمر على العكس من ذلك ؛ لأن إقحام المحسنات البديعية والزخارف اللغوية في الشعر بكثرة يدل على ضعف في الشاعرية و" هؤلاء الدخلاء على الشعر قلة لا يعتد بها ، ولا ينبغي أن تتخذ أساساً للحكم على العصر كله" [١٠٩].

---

(١٠٧) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ـ سيد كيلاني ، ص٥٩. نقلاً عن : ديوان الإدكاوي ورقة رقم ٢٩٣مخطوط رقم ٧٠٢٨. أدب ، دار الكتب.

(١٠٨) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ـ سيد كيلاني ، ص٦٣.

(١٠٩)الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ـ سيد كيلاني ، ص٦٣.

الشعر المصنوع :

أشكال الشعر المتكلف المثقل بالصناعة اللفظية في العصر العثماني :

١ـ أن يلتزم الشاعر في أبياته بالحروف التي لا تنقط :

كقول الشاعر : (١١٠)

أسرك دهر سره كله هم ومورد أكدار لوارده سم

٢ ـ أن يأتي الشاعر بقصيدة ليس فيها حرف منقوط من أسفل منها :

وذلك مثل قول الإدكاوي (١١١)

في قصيدته : (١١٢)

كملت محاسنه فتاها وسمت تفاخر من عداها

رشأ لواحظه غدت فتاكةً أو ما كفاها

٣ ـ أن يأتي الشاعر بقصيدة ليس فيها حرف منقوط من أعلى منها :

وذلك مثل قول الإدكاوي : (١١٣)

يا مليحاً يهوى دواماً صدودي لِمَ يا باهيَ الجمال الوحيدِ

أحرامٌ لو ميلوك لوصلٍ لمحبٍّ يرى الوصالَ كعيدِ

٤ ـ ورود جميع الحروف الهجائية في البيت الواحد :

---

(١١٠) ديوان : الدر المنظم في مدح الحبيب الأعظم ، عبد الرحمن الحميدي المتوفى سنة ١٠٠٥هجرية ، ص٩٥.

(١١١) هو عبد الله بن سلامة الإدكاوي المصري الشافعي الشهير بالمؤذن ، ولد بقرية إدكو بقرب رشيد سنة ١١٠٤هـ وبها حفظ القرآن الكريم ، ثم انتقل إلى القاهرة والتحق بالجامع الأزهر ودرس على شيوخ عصره ، وظهر ميله إلى الأدب فانضوى إلى فخر الأدباء في عصره السيد علي أفندي برهان زاده نقيب السادة الأشراف، الذي أسبغ عليه كرمه، ورتب له ما يكفيه في معيشته، وحج بصحته بيت الله الحرام ، وذلك سنة ١١٤٧هـ (الجبرتي١/ ٣٥٤).

(١١٢) الجبرتي ١/٣٥٩.

(١١٣) الجبرتي ١/٣٦٠.

مثال ذلك قول عبد الرحمن الحميدي المتوفي سنة ١٠٠٥هجرية [١١٤]:

خذوا بدمي حسناً غزالا عشقتها فصرت كطل ظل بالثج في رحض [١١٥]

٥- التزام بدء أبيات القصيدة بالحروف الهجائية على الترتيب :

مثل قول الشاعر : [١١٦]

أبت هند وصلي فالكرى مذ قست شطا وحظي ذكا من لاعج مثخن ضغطا

بذلي قضت فالوجد زاك وعنه لا محيص بلا غوث شفا ناظراً سخطا

فالبيت الأول يبدأ بحرف الألف ، والثاني بحرف الباء ، وهكذا إلى آخر القصيدة التي تنتهي بانتهاء الحروف الهجائية.

٦- انتهاء كل بيت بنفس الكلمة مع اختلاف معنى هذه الكلمة من بيت إلى آخر :

كقول الشاعر : [١١٧]

يا مائسة القد يا مكحلة العين كم من حسد فيك قد أصبت من العين

قد حزت جمالاً ورقةً ودلالا إذ فقت هلالاً أضا ، وفقت سنا العين

فالعين في البيت الأول هي العين الباصرة ، وفي البيت الثاني بمعنى الشمس.

٧ - وسع الاطلاع : وهو أربعة أنواع عند الإدكاوي ، هي :[١١٨]

الأول : أن يكون أول كل كلمة أولاً لأختها ، وفيه قوله :

بهي بدا بالوصل براً بصبه بزورته بانت بلابله باله

الثاني : حرف عاطل وحرف منقوط سوى القافية ، وفيه قوله :

---

(١١٤) ديوان : الدر المنظم في مدح الحبيب الأعظم ، عبد الرحمن الحميدي المتوفى سنة ١٠٠٥هجرية ، المطبعة المحمودية بالقاهرة ، سنة ١٣١٣هجرية ، ص٧٠.

(١١٥) الثج : ثج الماء أي سال ، والرحض : القربة التي يوضع فيها الماء.

(١١٦) ديوان : الدر المنظم في مدح الحبيب الأعظم ، عبد الرحمن الحميدي المتوفى سنة ١٠٠٥هجرية ، المطبعة المحمودية بالقاهرة سنة ١٣١٣هجرية ص ٨٣.

(١١٧) المرجع السابق ، ص١٤٣.

(١١٨) عجائب الآثار في التراجم والأخبار - الجبرتي ، الجزء الأول ، ص٣٥٦.

جميلٌ بديع جل ذاتاً بهيةً به زدت حباً فاتك بمجاله

الثالث : كلمة منقوطة وكلمة عاطلة ويسمى الاخيف ، وفيه قوله :

جننت ولو عافى هواه شغفت كم فتنت عساه يجتني لكماله

الرابع : جميع الكلمات منقوطة ، وفيه قوله :

شفيقٌ شقيقٌ شيق شنب شقي بغنجٍ بجفنٍ شفني بنباله

هذه هي أشهر أنواع الصنعة التي عرفت عند بعض شعراء العصر العثماني.

ومما اشتهر في هذا العصر نوع يسمى التأريخ الشعري .

ويتم فيه تسجيل التواريخ في القصائد بحروف الجمل ، وبيان ذلك أن الحروف الهجائية تتكون من : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ضظغ .

أبجد : أ = ١ ، ب = ٢ ، ج = ٣ ، د = ٤

هوز : هـ = ٥ ، و = ٦ ، ز = ٧

حطي :ح =٨ ، ط =٩ ، ي =١٠

كلمن : ك =٢٠ ، ل =٣٠ ، م =٤٠ ، ن =٥٠

سعفص : س = ٦٠ ، ع = ٧٠ ، ف = ٨٠ ، ص = ٩٠

قرشت : ق =١٠٠ ، ر = ٢٠٠ ، ش = ٣٠٠ ، ت = ٤٠٠

ثخذ : ث = ٥٠٠ ، خ = ٦٠٠ ، ذ = ٧٠٠

ضظغ : ض = ٨٠٠ ، ظ = ٩٠٠ ، غ =١٠٠٠

واستخدمت حروف الجمل أولاً في عبارات نثرية يتألف من مجموع حروفها التاريخ المقصود[١١٩]. وأقدم ما وصل إلينا من هذا النوع قول أحدهم مؤرخاً سبيلاً أنشأه الوالي العثماني بالقاهرة ، وهو[١٢٠] " رحم الله من دنا وشرب " فمجموع حروف هذه العبارة بحساب الجمل يساوي ٩٦٦وهو تاريخ إنشاء السبيل المذكور.

---

(١١٩) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ، ص٦٨.

(١٢٠) لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أخبار الدول ـ الإسحاقي ، المطبعة البهية بمصر، سنة ١٣٠٠هـ ، ص٧٢.

ومن الجدير بالذكر أن أقدم تاريخ شعري قول أحدهم في مقتل رجل اسمه محمود : (١٢١)

موت محمود حياة فيه للعالم رحمه
قتله بالنار نورٌ وهو في التاريخ ظلمه

فالحروف التي تتألف منها كلمة "ظلمه" بحساب الجمل تساوي ٩٧٥ وهو تاريخ قتل محمود ، لأن ظ =٩٠٠ ، ل =٣٠ ، م =٤٠ ، هـ =٥

ومن هذا الوقت قام بعض الشعراء بتأريخ بعض قصائدهم . وهذا الفن أهمله كثير من الشعراء فلم يستخدموه في قصائدهم ، ومنهم من استخدمه بقلة . (١٢٢)

ومن الأغراض الشعرية التي كَثُر فيها ورود التأريخ الشعري غرض الرثاء ؛ إذ كان من المستحسن عندهم أن يسجلوا تاريخ وفاة الميت . وكذلك ما ينظم للتهاني والأفراح . وقد ورد في بعض شعر المديح . أما الغزل والتصوف والهجاء فلم يرد فيه قط .

وكان يطلب من أحد الشعراء أن ينظم بيتين أو أكثر يختمهما بتاريخ بناء مسجد أو مدرسة أو قصر أو سبيل أو ضريح أو غير ذلك من المباني . (١٢٣)

إن التأريخ الشعري يعد - في رأيي - من صور الشعر المتكلف ، وذلك إذا حرص الشاعر على تسجيل التاريخ دون مراعاة المعنى.

ومن هذا النوع قول الإدكاوي مؤرخاً ، وقد كتبت على حنفية للوضوء : (١٢٤)

يا ناظراً في حسن وضعي لقد صرت سبيلاً لطريق النجاه
لسان حالي قائلاً أرخوا سبيل ماءٍ للوضو والصلاه

---

(١٢١) المرجع السابق : الصفحة نفسها..

(١٢٢) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني - سيد كيلاني ، ص٦٨ ،٦٩.

(١٢٣) المرجع السابق : ص ٦٩.

(١٢٤) الجبرتي ٣٦٣/١.

أما إذا راعى الشاعر المعنى ولم يتكلف التأريخ ، فيعد حينئذٍ من الشعر المطبوع ومن هذا النوع ما فعله الشبراوي في تأريخه لوفاة الشيخ أحمد الدلنجاوي [١٢٥]، حيث قال : [١٢٦]

سألت الشعر هل لك من صديقٍ وقد سكن الدلنجاوي لحده
فصاح وخرَّ مغشياً عليه وأصبح ساكناً في القبر عنده
فقلتُ لمن أراد الشعرَ أقصر فقد أرخت : مات الشعر بعده

ومنه قول الإدكاوي مؤرخاً وصول العين بالماء الكثير إلى مكة شرفها الله : [١٢٧]

جاد بالعين الإله لنا بعد ما كنا فقدناها
وجرت بالماء طافحةً فغدونا نحمد الله
فلذا قل إذ نؤرخه هو فيض الله أجراها

ومنه أيضاً ما قاله قاسم بن عطاء الله في تاريخ العام الجديد في بيتين يشتملان على ستة وثلاثين تاريخاً ، وهما : [١٢٨]

حارست عام اللقا ينجيك لي ملكاً زانت معاليك جري العلم فيك جلي
تلقى جمال طويل العمر صائته يجلو صداك ترى في العز نجل علي

فلا شك في خلو هذين البيتين من التكلف لأن قاسم بن عطاء الله قيل عنه : " وأما في التاريخ فإليه المنتهى مع السلامة والتناسب وعدم التكلف فيه " [١٢٩]

مما سبق يتبين أن الشعر العربي في العصر العثماني منه ما كان مطبوعاً عذباً ينساب انسياب الماء الجاري ، ومنه ما كان مكبلاً بقيود التكلف والصنعة إلى حد يضيع

---

(١٢٥) الأديب الأريب الشيخ أحمد الدلنجاوي شاعر وقته (الجبرتي١/٧٣).

(١٢٦) الجبرتي ١/٧٤. وتاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ـ شوقي ضيف ٧/٢١٨.

(١٢٧) الجبرتي ١/٣٦٢.

(١٢٨) الجبرتي ٢/١٩٦.

(١٢٩) الجبرتي ٢/١٩٦.

معه المعنى ، ولا يراعى فيه الهدف. ولكن النوع الأخير لم يكثر حتى يدعونا إلى الحكم على شعر العصر كله بالتكلف والثقل.

المبحث الثالث

الصياغة الشعرية بين القوة والضعف

تتمثل الصياغة القوية في جزالة الأسلوب وفصاحة العبارة وسعة الخيال ، كما أننا نصف الصياغة بالضعف إذا كان الأسلوب ركيكاً أو عامياً والخيال فقيراً.

أولاً : قوة الصياغة

تتضح في :

١ ـ شعر الفخر والحماسة :

لقد أثنى الشعراء على السلاطين العثمانيين وتغنوا بفتوحاتهم ، فعندما قام السلطان مراد بن سليم بفتح مدينة تبريز عام ٩٩٣هجرية افتخر به ابن القاف الرومي [١٣٠]، بقوله : [١٣١]

بعزمه ظهر الفتح الذي عجزت عنه السلاطينُ ، قد أفنتهم العُصُرُ
ولو فاخرته ملوك الأرض قاطبةً ما نالهم من معاني فخره العُشُرُ
هل يستوي الشمسُ والمصباحُ جنح دجى ويستوي الجاريان البحرُ والنهرُ
بدا له في سماء المجد نورُ هدى من دونه النيران الشمسُ والقمرُ
وأصبح الملك محروس الجناب وقد وافى به المسعدان القدْرُ والقدَرُ

افتخر الشاعر بالسلطان ، وأضفى عليه أسمى صفات العز والشرف ، وبين أن منزلته بالنسبة لملوك الأرض جميعاً كمنزلة الشمس بالنسبة للمصابيح ، وذكر الشاعر أن

---

(١٣٠) هو فيض الله بن أحمد ، المعروف بابن القاف الرومي ، قاضي العسكر ، وأحد فضلاء مشاهير الروم ، ولد سنة ٩٥٠هجرية ، وتولى قضاء حلب ثم قضاء الشام سنة ٩٩٠هجرية ، ثم عزل ورحل إلى بلاد الروم ، ثم تولى قضاء العسكر ، توفى سنة ١٠٢٠هجرية (خلاصة الأثر ٢٨٨/٣).

(١٣١) خلاصة الأثر ٢٩٠/٣).

السلطان المذكور صاحب مجد ظاهر لا يخفى على أحد فظهور مجده أوضح من ظهور النيِّران (الشمس والقمر).

وعبر الشاعر عن هذه المعاني بأسلوب فخم جزل وعبارات فصيحة واضحة ، وهذا يتناسب مع مقام الفخر.

وكذلك افتخر الشعراء بقوة الجيوش العثمانية وقاداتهم ، في الفتوحات ، ومن ذلك قول الشاعر عبد اللطيف بن بهاء البعلي [١٣٢] ، في قصيدته التي افتخر فيها بجيش المسلمين عندما فتح

السلطان محمد خان الرابع قلعة " إيوار" سنة أربع وسبعين وألف ، والتي منها :[١٣٣]

بالفتح زاد الدينُ عزاً واعتلى والله أعظم منةً وتفضُّلا
بالنصر أنجز وعده سبحانه وأعز جندَ المسلمين أولي الولا
في جحفل ستروا البسيطةَ كثرةً لم تُلف مثلهم النواظر جحفلا
ثبتوا ثبات الراسيات تصبرا من يلتقيهم يلق منهم أجبلا
حتى إذا حمي الوطيس لدى الوغى لم تلق إلا بَسلاً مستبسلا

بين الشاعر أن الفتوحات الإسلامية نصرة للإسلام ، وذكر أن الله ـ عز وجل ـ نصرهم وأيدهم وأعزهم ، ثم يفخر الشاعر بكثرة عدد الجند وشجاعتهم وانتصارهم على الأعداء.

وقد عبر الشاعر عن هذه المعاني بكلمات فصيحة جزلة وأساليب قوية تدل على قوة المعنى والغرض.

---

(١٣٢) هو عبد اللطيف بن بهاء الدين بن عبد الباقي البعلي ـ نسبة إلى بعلبك ـ اشتغل بالقضاء في طرابلس الشام، ثم بلغراد ، ثم فلبه ، له العديد من المصنفات والشروح ، منها شرح ديوان أبي فراس الحمداني ، توفى سنة ١٠٨٢هجرية (نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ـ المحبي ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٧١م ، ط الأولى ، ٣٩٤/٢.

(١٣٣) نفحة الريحانة٣٩٦/٢.

كما وجد الفخر القبلي والشخصي بشكل كبير في شعر العصر العثماني ، فمن شعر الفخر القبلي ، قول الشاعر : [١٣٤]

أنا من قومٍ إذا ما غضبوا أطعموا الأرماح حبات القلوب
وهم في السلم كالماء صفا لصديقٍ وحميمٍ وقريبِ
فهمُ فخري وفيهم قدوتي وبهم نلتُ من العليا نصيبي
وبفضل الله ربي لم أزل في مراقي العزِّ والعيشِ الرطيبِ

الشاعر علي بن إسماعيل الزيدي قد استمد مادة فخره من مآثر قومه ومكانتهم ، وقد ذكر أن والده إمام اليمن يعد قدوةً له.

ويعد الشاعر حسين بن كمال الدين الحسيني [١٣٥] من الشعراء الذين افتخروا بأنفسهم كثيراً ، من ذلك قوله : [١٣٦]

وإني صبورٌ عند كل مُلِمَّةٍ يشيبُ لها فَوْدٌ ويحدودِبُ الظهرُ
ولا ارتاعَ لي قلبٌ لخطبٍ إذا غدا عليَّ له الإبرامُ والنهيُ والأمرُ
فلا خيرَ في قلبٍ أبت أن تُذيبَه خطوبٌ فلولا السبكُ ما عُرفَ التِّبرُ

وشعر الفخر الشخصي في هذا العصر كثيرٌ متنوع المعاني ، فمن الشعراء من افتخر بشجاعته وقوة إرادته ، ومنهم من افتخر بسعة علمه ورجاحة عقله ، وهنالك من افتخر بحسبه ونسبه....[١٣٧]

---

(١٣٤) نفحة الريحانة ٣/٢٥٩-٢٦٠.

(١٣٥) هو حسين بن كمال الدين بن محمد بن حسين بن محمد بن حمزة الحسيني ، ولد سنة ١٠٣١هجرية ، سافر إلى بلاد الروم وأقام بها زمناً طويلاً ، ثم عاد إلى دمشق ، وصار نائباً بالمحكمة الكبرى ، ودرس بالمدرسة الفارسية ، جمع كتاباً سماه "التذكرة الحسينية"ذكره فيه بعض الشعراء المتقدمين إضافة إلى بعض شعراء عصره ، وختمه بذكر الكثير من شعره ، توفى سنة ١٠٧٢هجرية (خلاصة الأثر ٢/١٠٥)

(١٣٦) نفحة الريحانة ٢/٢٦- ٢٨.

(١٣٧) تاريخ الأدب العربي ، العصر العثماني ، عمر موسى باشا ، ص ١٣٥.

لوحظ أن الشعر الذي ذكر في الفخر يتمتع بقوة التراكيب وفخامة الألفاظ وفصاحة العبارات وهذا هو شأن قصائد الفخر دائماً .

٢ ـ شعر الوصف :

كثر في هذا العصر وصف الشعراء للحدائق والبساتين ، والثمار والمياه . وقد امتازت القصائد الوصفية بجمال أساليبها مع فخامتها ، وظهرت براعة الشعراء الفنية. ففيها التشبيهات اللطيفة والصور الجميلة . وفيها حيوية فياضة وشعور متدفق .

ومما يعد من شعر الوصف الحسي الذي نلحظ فيه روعة التصوير بعض نماذج من **شعر الغزل الصريح :**

وهو الشعر الذي يصف الشاعر فيه المفاتن الجسدية للمرأة ، ذلك النوع من الغزل كان الشعراء يشبهون فيه ملامح المرأة المحبوبة بأجمل ما في الطبيعة من مباهج ، من ذلك قول عبد الرحمن بن إبراهيم الموصلي [١٣٨] في قصيدته التي منها :[١٣٩]

سلبوا الغصون معاطفاً وقدودا وتقاسموا وردَ الرياضِ خدودا
فتنوا الورى بلواحظٍ وتجاوزوا بالفتكِ من نهب العقولِ حدودا
نظموا الثنايا في المباسم لؤلؤاً تحت الزّمرّدِ والعقيقِ عقودا
تخذوا البنفسج في الشقيقِ عوارضاً والياسَمينَ معاصِماً وزنودا
بدلوا الخصورَ من الخناصر رقةً واستبدلوا حُقَقَ اللُّجينِ نهودا

في الأبيات السابقة يصف الشاعر الصفات الحسية التي تُطلَبُ في المرأة بصفة عامة ، والتي توجد في أبهى مظاهر الطبيعة . فالقوام مثل الغصن ليناً والخد مثل الورد حمرةً ونضارةً والثنايا مثل اللؤلؤ داخل ثغر كالبنفسج مع شقائق النعمان والمعصم والزند مثل

---

(١٣٨) هو عبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد الرحمن الموصلي ، ولد سنة ١٠٣١هجرية ، كان أديباً فاضلاً ، وشيخاً من شيوخ الصوفية المعروفين في عصره ، توفى بدمشق سنة ١١١٨هجرية (نفحة الريحانة ١/٤٣٠).

(١٣٩) نفحة الريحانة ١/٤٣٢.

الياسمين والخصر من رقته كخنصر اليد (وفي هذا مبالغة) ، كما أن الصدر في بياضه كالفضة.

في هذه القصيدة مزج الشاعر بين ملامح المحبوبة ومفاتن الطبيعة الرائعة ، وذلك في صياغة متميزة كثرت فيها التشبيهات الرقيقة ، وتنوعت فيها الصور الجميلة العذبة.

ومثل ذلك ما قاله الصبان [١٤٠] في تغزله :[١٤١]

وحق صبح المحيا مع دجى الشعر وجنة الخلد مع راح اللمى العطر

وعرف عنبر خال وابتسام فم من اليواقيت عن ثغرٍ من الدرر

إلى أن قال:

غصن من البان قد رقت شمائله فرق في حبه ذو البدو والحضر

بديع حسن يقول الناظرون له تبارك الله ما هذا من البشر

يصف الشاعر جمالاً حسياً لمحبوبته ؛ فوجهها مشرق كالصبح وشعرها أسود كالليل ، وفي هذه المقابلة إظهار لبديع جمال هذه المرأة فالضد يظهر حسنه الضد ، كما أن رائحتها عطرة ، ويبدو هذا العطر في شعرها وخدها ، كما أنها حين تبتسم تبدو لنا اليواقيت والدرر في أجمل صورة . وهذه المرأة ذات خصر لين وكأنه من شجر البان في ليونته وسهولة انثنائه ، ومن رقتها ذاب في حبها جميع الناس ذووا البدو منهم وذووا الحضر .

ويختم الشاعر أبياته الوصفية بالتأكيد على غاية حسن هذه المرأة ، حتى ظن الناظرون لها أنها ليست من البشر بل من الملائكة ، وفي هذا اقتباس من قوله تعالى على لسان

---

(١٤٠) العالم النحرير واللوذعي الشهير شيخنا العلامة أبو العرفان الشيخ محمد بن علي الصبان الشافعي ، ولد بمصر وحفظ القرآن والمتون واجتهد في طلب العلم وحضر أشياخ عصره وجهابذة مصره ، ولم يزل يخدم العلم ويدأب في تحصيله حتى تمهر في العلوم العقلية والنقلية ، ومات ليلة الثلاثاء من شهر جمادى الأولى ، وصلي عليه بالأزهر في مشهد حافل ودفن بالبستان (الجبرتي٢/٢٤١، ٢٤٧).

(١٤١) الجبرتي٢/٢٤٦.

النسوة التي تجمعن عند امرأة العزيز لرؤية سيدنا يوسف عليه السلام : " فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرا إن هذا إلا مَلَكٌ كريم"(١٤٢)

وننتقل من الوصف الحسي إلى **الوصف المعنوي (وصف المشاعر والأحوال)** ، وذلك ما فعله الظهوري (١٤٣) في غربته شوقاً إلى مصر ، فقال : (١٤٤)

أقضي نهاري صامتاً ومكرباً ويجمعني ليلي وهمي وفكرتي
ولم أر فيها حلةً أستظلها سوى زفراتٍ من هجيرٍ بشعلةِ
ولم ألقَ فيها واحداً أستجيره ولا فاضلاً أمليه حسن شجيتي
قضاءٌ من الله لا شك واقعٌ وأولي له التسليمَ في كل حالةِ

يصف الشاعر حالته في غربته وصفاً مبكياً ، فهو يقضي نهاره في صمت وكرب ، وليله في هم وتفكير ، ويبين أن المكان الذي ذهب إليه شديد الحرارة ، هجيره يكاد أن يشتعل ، لا ظل فيها ولا ظليل ، وهو في تلك الأجواء ينفث زفرات حارة بمفرده ؛ فلا صاحب يشكو له حاله فيخفف عنه ولا فاضل يبث له بلواه. ثم يفوض الشاعر أمره إلى الله - عز وجل - ويرضى بقضائه ، ويسلم به.

ومن القصائد التي جمع فيها أحد الشعراء بين الوصف الحسي والمعنوي ما ذكره نور الدين العسيلي (١٤٥) في قصيدته التي وصف فيها دولاباً (ساقيةً) ، جاء فيها :(١٤٦)

---

(١٤٢) سورة يوسف آية ٣١.

(١٤٣) الظهوري .... - ١٢١١هـ ، اسمه : إسماعيل بن خليل بن علي بن عبد الله الشهير بالظهوري المصري الحنفي . كان إنساناً قانعاً بحاله ، يتكسب بالكتابة وحسن الخط ولم يصل لنا من آثاره الأدبية سوى القليل (الجبرتي ٢/٢٨٤).

(١٤٤) الجبرتي٢/٢٨٨.

(١٤٥) من علماء مصر وفضلائها وشعرائها في القرن العاشر الهجري ، كان فقيهاً ، وعكف على التأليف والدرس ، قد غطى اشتهاره بشعره على شهرته بالعلم والفقه ، وغلب عليه الغزل ، توفى سنة ٩٩٤هجرية (انظر ترجمته في ريحانة الألبا ، تحقيق : عبد الفتاح الحلو ١٩٧/٢وما بعدها ، وتاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات لشوقي ضيف ، ج٧ ، ص٢٩٦).

ودولاب مررت به سحيراً يئن كأنه الصب المروع
غدت أضلاعه تنعد سقماً ويفني جسمه صب الدموع
يدور كمن أضل الألف منه وذاق تشتت الشمل الجميع
فقلت له فديتك من كئيب كساه الهم أثواب الخشوع
علام أراك تبكي كل وقت وتهتف في المنازل والربوع؟
فقد قربت لي حزناً بعيداً ونحاني نواحك عن هجوعي
فقال: أما علمت بأن مثلي خليق بالصبابة والولوع؟
فإني كنت في روضٍ رفيعاً أبيتُ من الأزاهر في جموع
ولي في المنتمى أعراق صدقٍ أصول أنجبت أزكى فروع
إذا ما الورد قابلني وحيا تضرج وجنتاه بالنجيع
ويصفرُّ البهارُ لديَّ خوفاً كصفرة عاشقٍ صبٍّ مروع
وإن قصدت بنو الآداب ربعي أجود من النثار على الجميع
فقيضني الشقاءُ إلى غبيٍّ شديد البطش جبارٍ قطوع
فألقاني على رأسي صريعاً وأنت مشاهد حال الصريع
وقطع لطف أوصالي بعنفٍ وصار يدق عظمي في ضلوعي
فصرتُ أرى الذي قد كان دوني أناف وصار ذا شأوٍ رفيع
على قلبي أدور عناً وأبكي عليه أسى كمقلات هلوع
فكيف ألام إن أدمنتُ نوحي وجدت بمدمع الطرف الهموع؟
وحالي ناصحٌ أبناء جنسي فلا تعتد بالجذع المنيع
فإن الدهر كالصيادِ كيداً وأسباب القضى شَرَكُ الوقوعِ

من خلال هذه القصيدة الرائعة مزج الشاعر بين وصفين أحدهما حسي (ساقية) والآخر معنوي (حاله ومشاعره) ؛ وذلك لما حكى لنا قصة (ساقية) تتحسر على حالها الذي آلت

---

(١٤٦) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ، ص٢١٤، ٢١٥.

إليه ؛ حيث كانت في بداية أمرها جذع شجرة عالية قوية ينظر إليها جميع ما في البستان من ورود وزروع ويتمنون أن يكونوا في رفعة شأنها وعلو مكانتها ومكانها . ثم دار الزمان دورته فانقلب وضعها إلى أسوأ وضع حتى صارت في حال يرثى لها وأصبحت أقل شأناً من جميع ما حولها ، وذلك حدث لها بسبب شخص غبي لم يقدرها فأخذها بعنف وأسقطها صريعة وقطع أوصالها وأخذ يدق أجزاءها دقاً إلى أن وصلت إلى هذه الصورة (ساقية) .

من خلال هذه الأبيات تظهر لنا مقومات القصيدة الناجحة ، فالعاطفة تتسم بالصدق والحرارة، وفيها نقل لنا الشاعر أحاسيس الهم والحزن ، فقد فهم من الأبيات أن الشاعر يسقط ما في نفسه على الساقية ، ففي الحقيقة هو الذي مر بهذه الظروف وهو الذي انقلبت حاله وساءت ظروفه ، فكان يشار إليه بالبنان ثم أضحى مدعاة للشفقة على كل لسان . كما لوحظ أن خيال الشاعر خصب ؛ فقد صور لنا الساقية وهي جماد ـ لا إحساس لديها ولا مشاعر ـ في صورة إنسان يعاني من فقد محبوبته وبعدها عنه ، وشبه الساقية بأجزائها بعاشق أصيب بنحافة شديدة من الشوق والصبابة حتى يمكننا أن نعد أضلاعه عداً ، كما صور لنا المياه التي تخرج من فتحات الساقية بصورة الدموع التي تسيل من عين العاشق المشتاق ، كما أن الساقية وهي تدور وتلف تخيلها إنساناً يبحث عن محبوبته فهو دائم الحركة والدوران ولن يهدأ له بال حتى يجدها. وفي هذا دلالة واضحة على سعة خيال الشاعر وروعة تصويره وفيه أيضاً إسقاط لما في نفسه على الساقية .

كما تتسم الكلمات بالفصاحة ودقة التعبير. وفيها جمع الشاعر بين الوصف الحسي والمعنوي. فهذه القصيدة ـ كما أرى ـ متميزة ودالة على شاعرية صاحبها.

ثانياً : ضعف الصياغة

وكما وجدت نماذج متعددة للشعر الفصيح ، وجدت كذلك أشعار تكاد تقترب من العامية ، ويتمثل ذلك في :

بعض نماذج من الشعر الفكاهي :

يعبر الشاعر من خلاله عن قضايا اجتماعية ولكن بصورة خفيفة ، من ذلك قول الإدكاوي:(١٤٧)

سمعنا أن في الدنيا فلوساً ولكن دون مبلغها زجاج
وقال القائلون هناك قمحٌ تزق به الحمائم والدجاج
وأخبرنا المخبر أن شيئاً يسمى الفول تأكله النعاجُ
وأهل الشرق قالوا ثَمَّ أرزٌ يروق إذا أتى منه فجاجُ
وأما قولهم يا صاح سمنٌ فقولٌ ما له عندي ابتهاجُ
أمورٌ كلها عندي محالٌ وأقوالٌ بها عندي انزعاجُ
هب الدنيا قد امتلأت بهذا أليس لنا بشيءٍ منه حاج؟
فأكياس الفلوس مفلساتٌ نموت ولا يكاد لها انتفاج
وأما القمح دع ذكراه رأساً فذكراه يضر بها المزاج
وأما الفول سل عنه حماري فمنه دواؤه وبه العلاج
وأما الأرز نعرفه ولكن له عنا انحرافٌ واعوجاجُ
وأما السمن سمناه وداداً فقال وداد مثلكمو خداج
وأما البيت عنه لا تسلني فبومته لها دوماً هياجُ

يعاني الشاعر من سوء الأحوال الاقتصادية التي مر بها ، وهذا كان حال أكثر الناس وقتئذ ، فهو يسمع عن الأموال ولا يستطيع الوصول إليها وكأن بينه وبينها حاجز من زجاج إذا اخترقه أصيب بجراح ، وصور الشاعر لنا مظاهر حرمانه من أنواع أساسية للطعام ، فهو لا يملك القمح ولا الفول ولا الأرز والشاعر لا يستطيع أن يمتلك الطعام الرخيص ، فهو من باب أولى يعدم الطعام الغالي مثل السمن لأن أكياس النقود لديه فارغة ، ويؤكد حالة الفقر التي يعانيها بوجود بومة في البيت ، فكأن بيته خرب فوقفت عليه بومة الشؤم والفقر.وأخذت تصيح بصوت يعبر عن الحاجة والعوَز.

(١٤٧) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ـ ص٣١٧.

لقد عبر الشاعر عن معاناته هذه بأسلوب مضحك مبكٍ في نفس الوقت إلا أنه يفتقر إلى الفصاحة والقوة في التعبير؛ فقد اشتملت القصيدة على كلمات ركيكة تكاد تصل إلى مستوى العامية.

ومن الشعر الذي يبدو الضعف في أسلوبه واضحاً ، ما قاله عبد الله الشبراوي معاتباً أحد أصدقائه : (١٤٨)

أيها الخِلُّ قد صحبناك دهراً وبلونا حلاك سرّاً وجهرا
وألفنا من طبعك اللطف والظر ف وطيب الأخلاق طيباً ونشرا
وعلمناك أطهر الناس ذيلا ثم أيضاً لازلت تزداد طهرا
ولقد طالما اختبرناك حلما فرأيناك أحلم الناس صدرا
ما ظننّاك أيها الخل من قبـ ـل علينا بما جرى تتجرا
وعلى كل حال أنت والله ـه بما عندنا من الحب أدرى
حاشى لله أن نحول عن العهـ ـد ونأتي شيئاً من الغدر نكرا
فعلام الإعراض عني وإني لم أجد عنك بعد بعدك صبرا
لا تسيء بي ظنا فما أنا ممن يظهر الود ثم يضمر غدرا
وإذا ما سمعت عني ذنباً فالتمس لي عن ذلك الذنب عذرا
وعلى فرض أنني فيك أذنبـ ـت فإني لديك آمل سِتْرا
إنما الحر من تجاوز عن هفـ ـوة من كان في المودة حرا
هذه خلة الأخلاء قدماً لا رأتك العينان منها معرى
إن تحقق رجاي فيك فأهلاً أنت والله بالمكارم أحرى
وإن ازددت في الصدود وفي الهجـ ـر فوا الله لا أحاول هجرا
ووداديَ الذي عهدتَ ودادي لم أحل عنه قط شهراً ودهرا
لا تغرنك الوشاة ففيهم عن قريبٍ سيحدث الله أمرا
وإذا ما أضعت شعري فإني عند كسري أرجو من الله جبرا

---

(١٤٨) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ـ ص٣٢٢.

كان للشبراوي صاحب مخلص ، ثم بدا منه الصدود لوشاية واشٍ حقود أوقع بينهما ، فتألم الشبراوي من صدود صاحبه وحزن حزناً شديدا ، وأخذ يعاتب صاحبه في سماع الوشاية عليه وبين له أن العلاقة بين الخلان لا يصح أن تنفك بوشاية حاقد ، ثم يؤكد الشاعر أنه لا يزال على العهد الذي بينه وبين صاحبه محتفظاً له بالود الصافي والحب الصادق ، ويثق الشاعر في أن الله سيعاقب الوشاة ويحدث فيهم أمره ، ثم يدعو الله أن يجبر كسره ويصلح ما تهدم من علاقتهما .

تحمل القصيدة هدفاً سامياً وهو طلب البقاء على المودة وحسن الصُحبة ، ولكن ما شوه جمال القصيدة هو أنها صيغت بأسلوب ضعيف وعبارات ركيكة ، كما أن المبنى لم يكن على قدر المعنى ؛ حيث أسهب الشاعر في تعبيره بألفاظ كثيرة زادت عن المطلوب ، وكرر المعنى مراراً فكان يكفي أقل من ذلك للوفاء بالغرض المطلوب.

ومن القصائد التي ضعفت صياغتها ولم يراعي الشاعر فيها فصاحة العبارة ولا قوة الصياغة، بعض قصائد من الشعر الشعبي ، مثل ما ذكره محمد البكري في القهوة ، فقال :(١٤٩)

أدر القهوة في كاس البها
قهوة البن وناهيك بها
هي حل ما نهى عنها نُهى
فاسقني يا صاح
شنف الكاسات واسمع ما أقول
إنها شرب الأجلاء الفحول
أولياء الله أرباب الوصول
لحمى الفتاح
ما علينا من عذول جاهل
مفترى زور كلام باطل
خامل الذكر وميت زائل
راح مع من راح

---

(١٤٩) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ، ص: ١٩٥.

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى قيمة القهوة ؛ ويبين أن القهوة لها نكهة لذيذة ولذلك فهو يطلب من الساقي أن يجهز له كأساً منها . ويرفع الشاعر من مكانة القهوة أكثر لأنها مشروب الأولياء ذوي العقول النابهة . ويذكر أن من حرم القهوة فهو جاهل خامل الذكر .

وهذه الموشحة واضحة ذات أسلوب ركيك يقترب من العامية ، كما أن الغرض من الأبيات ـ كما يبدو لي ـ تافه .

وقد دخلت الأساليب الركيكة حتى في الشعر الصوفي ، ومن ذلك قول محمد البكري في موشحته : (١٥٠)

طلعة المحبوب كل القمر
هكذا هيمت كل البشر
كيف لا تسري بكل الصور
وهم هالات
وحّدت معناك عيني نظرا
قال لي قلبي شهدتُ الأثرا
ما تراني عين سعدى ما ترى
وحدة بالذات
زال لبسي حيث نفسي أعربت
وكذا شمسي بأفقي غربت
مثلما روحي بروحي طربت
والهوى لذات

يهيم الشاعر شوقاً إلى رؤية الذات العلية ، ويتصور جمال الخالق ـ عزوجل ـ في خياله فهو ـ سبحانه ـ عند الشاعر قمر والخلق من حوله هالات النور ، ويبين الشاعر أنه في سعادة غامرة لأنسه وقربه من الله العظيم.

---

(١٥٠) المرجع السابق ، ص١٩٦.

وعلى الرغم من جلالة الغرض والمعنى إلا أن أسلوب الصياغة ضعيف لا يتناسب مع قوة الغرض وعظمته.

كما وجد كذلك الشعر العامي:

وكان يُعرف بالزجل والمواليا ، ومن أشهر الزجالين في العصر العثماني عامر الأنبوطي ، ويتناول في أزجاله أنواع الطعام والشراب ، فمن ذلك قوله : (١٥١)

أكلك من الضأن رطلين يزيد قلبك نفاسه
وابعد عن الكشك يازين دا الأكل منه تعاسه

وقوله : (١٥٢)

أكل المطبق مع الفجر بالشهد والسمن السايح
الليجيبو لو أجر في جنة الخلد رايح

وقوله :(١٥٣)

يا طابخ الضأن اشتد واغرف أواني وسيعه
عامر أتى لك وله يد في الأكل دايما سريعه

وقوله : (١٥٤)

خشاف مشمش وعناب الشرب منهم دوايه
من بعد ما كل كباب يارب حقق رجايه

وقد اشتهر بعض الشعراء بتأليف أشعار لتغنى في المقاهي وغيرها من أماكن اللهو والسمر ، وممن اشتهر بهذا عبد الله الشبراوي ، حيث قال : (١٥٥)

يا أهل الأدب والله وحق المختار ما شفت عمري في الجمال مثله
قمر مصور ما نظرتش حسنه في حد من بعده ولا من قبله

وقوله : (١٥٦)

---

(١٥١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ الجبرتي ٢٥٢/١.

(١٥٢) المرجع السابق: ٢٥٢/١.

(١٥٣)المرجع نفسه: ٢٥٣/١.

(١٥٤) الجبرتي :٢٥٣/١.

(١٥٥) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ، ص٢٠٦.

والله مليح وجميل وكامل الأوصاف وأنا أحبه ملو قلبي وأهواه
لطيف ظريف الشكل مالوش مثيل في رقته أما كلامه ما أحلاه

من خلال النماذج الشعرية التي استعرضناها يتبين أن " الشعر في العصر العثماني لم يندثر كما يتوهم الناس ، بل ظل محتفظاً بمكانته التي شغلها من قبل . وهو في معظمه ، جيد العبارة، قوي الأسلوب ، بعيد عن التكلف ".(١٥٧)

وإن وجدت نماذج أخرى من الشعر الرديء ، فهذا لا يدعونا إلى محو كل شعر جيد ، كما أنه لا ينبغي أن نقيس شعر عصر بمقياس عصر آخر . فمثلاً " من الخطأ أن نتخذ لغة امرئ القيس أو المتنبي أساساً للحكم على شعر العصر العثماني . وذلك لأن هذا العصر تحكم فيه طابع خاص يختلف كل الاختلاف عن العصور السابقة ولكل عصر طابعه ، ولكل بيئة معالمها ومميزاتها . والأدباء إنما يعبرون بلغة العصر الذي يعيشون فيه ". (١٥٨)

---

(١٥٦) المرجع السابق ، ص٢٠٦.

(١٥٧) المرجع السابق : ص١٧٧.

(١٥٨) المرجع نفسه : ص٥٦.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على من سلم لسانه من الأخطاء والزلات ، وعلى آله وصحبه الطاهرين وزوجاته الطيبات.

وبعد ،

فقد تجولنا في بساتين الشعر العربي في حقبة طويلة من الزمن امتدت قروناً ، ثم تبين لنا أن هذه الفترة الزمنية في ظل حكم العثمانيين قد غفل عنها كثير من مؤرخي ودارسي الأدب . بل إنها رميت ظلماً باتهامات باطلة ، وكأنها فترة مظلمة مات فيها الشعر ودفن .

و بالبحث والتدقيق تبين أن العصر العثماني قد تمتع بنتاج وافر من الشعر الجيد.

ولا أقصد أن كل النتاج الشعري في العصر العثماني كان متطوراً ومشتملاً على كل مقومات الشعر الناجح ، ولكن لا ينبغي أن ننفي جودة الشعر عن عصر ما لوجود نماذج أخرى من الشعر المتكلف الركيك .

وعلى الرغم من تنوع النماذج الشعرية في أي عصر من العصور الأدبية وتراوحها بين الجودة والرداءة .إلا أننا لم نجد من يتهم أي عصر من عصور الأدب كما اتهم العصر العثماني بضعف شعره وانحطاطه .

إن من أقوى الأسباب التي أدت إلى شيوع هذه الأكاذيب والافتراءات على شعر ذلك العصر هو حقد غير المسلمين من الغرب على الإسلام وأهله. فالعثمانيون فتحوا البلاد لنشر الإسلام فيها. فبدلاً من اعتراف الغرب بأن العصر العثماني كان عصر الفتوحات والإشراقات ، اتهموه بأنه عصر الركود والظلمات في جميع المجالات ومنها المجال الأدبي شعراً ونثراً.

ومن خلال البحث توصلت إلى النتائج الآتية : ١ ـ العصر العثماني أهدى لنا نتاجاً ضخماً من الشعر الجيد. فالشعر وقتذاك لم يندثر كما زعم كثير من المؤرخين والباحثين.

٢ ـ الشعر في العصر العثماني لم يكن على درجة واحدة ، فكان منه الجيد وكان منه الرديء.

ومن التوصيات :

١ ـ الحث على تبصير مؤرخي الأدب ودارسيه بما يكيده لنا غير المسلمين من تشويه التاريخ الأدبي في العصر العثماني ودعوتهم إلى الرد على الاتهامات الباطلة التي تحط من شأن الأدب في تلك الحقبة الزمنية.

٢ ـ ضرورة الاهتمام بأدب العصر العثماني شعراً ونثراً فهو ثروة ثمينة لمن أراد الانتفاع بها.

فهرس المصادر والمراجع

الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني . نبيل خالد أبو علي ،سنة ٢٠٠٨م ، ط الأولى.

الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث . محمود رزق سليم ، دار الكتاب العربي ، مصر سنة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م .

الأدب المصري في ظل الحكم العثماني . محمد سيد كيلاني ، دار الفرجاني ، القاهرة ، ١٩٦٥م.

الأسس الجمالية في النقد الأدبي عند الجاحظ . رضية بنت عبد العزيز بن شعيب تكروني ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، سنة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

بدائع الزهور في وقائع الدهور . محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ، تحقيق : محمد مصطفى . الجزء الخامس ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ١٩٨٢م.

تاريخ الأدب العربي . العصر العثماني . عمر موسى باشا ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ١٩٨٩م ، ط الأولى.

تاريخ آداب اللغة العربية . جورجي زيدان ، ط سنة ١٩١٣م ، الجزء الرابع.

تاريخ الدولة العلية العثمانية . محمد فريد بك ، تحقيق : د/ إحسان حقي ، ط. دار الوفاء.

تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ محمد فريد بك ، تحقيق : د/ إحسان حقي، دار النفائس، بيروت ، سنة ١٩٨١م ، ط أولى.

تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات مصر . شوقي ضيف ، دار المعارف القاهرة ، ط٢ ، ج٧.

تراجم الأعيان من أبناء الزمان . الحسن بن محمد البوريني ، تحقيق : صلاح الدين المنجد المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٥٩م.

الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء . أحمد فوزي الهيب ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٦م ، ط الأولى.

حقائق الأخبار عن دول البحار- إسماعيل سرهنك ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، الجزء الأول.

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر . محمد المحبي ، طبعة دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) ، ج١ ، ج٢ ، ج٣ ، ج٤.

الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية . علي حسون ، المكتب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٣م ، ط الثالثة.

الدولة العثمانية والشرق العربي . محمد أنيس ، ط مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٥م.

الدولة العثمانية دولة إسلامية:مفترى عليها . د/ عبد العزيز محمد الشناوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠م ، الجزء الأول.

ديوان : الدر المنظم في مدح الحبيب الأعظم ، عبد الرحمن الحميدي المتوفي سنة ١٠٠٥هـ ، المطبعة المحمودية بالقاهرة سنة ١٣١٣هجرية.

الرثاء . شوقي ضيف ، طبعة دار المعارف ، مصر ١٩٧٩م.

ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا . شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٧م ، ط الأولى.

عجائب الآثار في التراجم والأخبار . الجبرتي ، المطبعة العامرة الشرفية ، مصر ١٣٢٢هـ ، ج١ ، ج٢.

في أصول التاريخ العثماني . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، دار الشروق ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ط الثانية.

الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة - نجم الدين الغزي ، تحقيق : جبرائيل جبور ، طبعة بيروت ١٩٤٥م.

الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة - نجم الدين الغزي ، تحقيق : جبرائيل سليمان جبور ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩م ، ط الثانية ، ج الثالث.

لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أخبار الدول . الإسحاقي ، المطبعة البهية بمصر ، سنة ١٣٠٠هـ .

أطف السمر وقطف الثمر . من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر . نجم الدين محمد بن محمد الغزي الدمشقي (ت١٠٦١هـ /١٦٥١م) ، تحقيق : محمود الشيخ ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق، د.ط ، د.ت.

محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية- الدولة العباسية . محمد الخضري بك ، تحقيق : محمد العثماني ، دار القلم ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م ، ط الأولى.

مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني . بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، سنة ١٩٨٩م.

مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني . بكري شيخ أمين ، ط/ دار الشروق، ١٩٧٢م.

النثر في العصر العثماني في مصر والشام بحث لـ محمد فتحي الأعصر ، كلية دار العلوم ، القاهرة ، سنة ١٤٣٤هـ /٢٠١٣م.

النثر المصري في عصر الدول المتتابعة . د/زينب بيره جكلي ، دار الضياء للنشر والتوزيع ، عمان ٢٠٠٧م ، ط الأولى.

نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة . المحبي ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٧١م ، ط الأولى.

واقعنا المعاصر . محمد قطب ، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر ، السعودية ١٩٨٦م، ط الأولى.